رواية
ابن الذئب
اشرف الخضرى

ابن الذئب

٢٠٢١م

روايــة

ابــن الذئــب

أشرف الخضري

يصدر عن:

دار ميتا بوك
للطباعة والنشر والتوزيع

رواية
**** ***** ****

ابن الذئب
**** ***** ****

أشرف الخضري
**** ***** ****

الإشراف العام
أيمن عبيد
**** ***** ****

الإشراف الفنى
السعيد المصرى
**** ***** ****

الطبعة الأولى، ٢٠٢١م
* **** ***** **** *

التجهيزات الفنية والطباعة:

METABOOK
Publisher
002 01013121217
dametabook@gmail.com

• رقم الإيداع: 2021-4470
• الترقيم الدولى، I.S.B.N : 978-977-6644-71-1

• الأراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار. بل تعبر عن رأى المؤلف فى المقام الأول.
• حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة. للمؤلف. ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي. أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه. أو تحويله رقميا. أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت. إلا بأذن كتابي مسبق من المؤلف.

صنعتُ ثقباً في السد ومضيتُ، عندما اجتاحني

الفيضانُ لم يخبرنِ أنه أنا . . الفاعلُ !

1

"كيف يَنسلخُ النهارُ منْ الليلِ؟

أين تذهبُ الشمسُ عند المساءِ؟

ثلاثـةُ وتسـعون مليـونَ ميـلٍ، مسـافةٌ هائلـةٌ تفصـلني عـن الشـمس! كيـف يستطيعُ أيُّ ليلٍ أن يتغلبَ على هذه المسافة؟

الليـلُ حـيٌ، الليـلُ امـرأةٌ شـفقيةُ الخـدين، فضـيةُ العينـين، شـعرُها حالـكٌ كحدقـةِ ظبـي، صـدرها واسـعٌ كمجـرةٍ بـلا نهايـة، تنحنـي عنـد كـل مغـرب مـن المغـارب العديـدة، وتحتضـنُ الأرضَ، تَلُـفُ شـعرها الإزار عليهـا، فينعسُ النهارُ ويصحو أخوه التوأم.

هـا همـا توأمـان، أبـيضُ وأسـودُ، مـوحشٌ ومـؤنسٌ، صـاخبٌ وسـاكنٌ، يقتسمان رغيفاً واحداً كلَّ يومٍ، وعلى بعضهما لا يبغيان.

ويتخيـلُ رضـوانٌ، ويضـعُ النـايَ علـى مُنتصـفِ الطاولـة، أمـام فوهتـه يضـعُ برتقالـةً خضـراء ، يناوشـها اللـونُ الأصـفرُ علـى بعـض جنباتهـا، وأمـام مبسـمه يضـعُ كشـافَ جيـبٍ صـغيرٍ ويضـيئوه، ، يطفـئ اللمبـة النيـون، يسـتديرُ وينظـر مـن مسـافة متـرين لوجـه البرتقالـة مـن جهـة الأمـام، فيـرى أنهـا سـاكنةٌ فـي عتمـة خافتـة، فيُحضـرُ قطعـة المـرآة المربعـة، ويسـندُها بكـوبٍ أمـام النصـف المعـتم، فيرتـدُ الضـوءُ وينيرُهـا بطريقـةٍ حانيـةٍ، ويُحـدَّثُ نفسـه، لـيس فـي الكـون مرايـا، أتُـرى لهـذا السـببِ لا تـنعكسُ صُـورُ الملائكـةِ والشـياطين فـي المرآة؟!ويطـرقُ هـاتفٌ مُقلـقٌ رأســه، فيســتلقي ويحــاولُ أن ينــام، وتُوقظــهُ أولَ النهــار أصــواتُ العصـافير، يمـدُ بصـره لنـورٍ أبـيضَ يجـيءُ مـن جهـة المشـرق قبـل بـزوغ الشـمس، ويتسـاءلُ مـن أيـن يجـيء نُـورُ مولـدِ النهـار، وتتـوهجُ الشـمسُ وتعلو رويداً رويدًا، ويتمطى الضحى.

يسـلقُ عـدة بيضـات، ويُفطـرُ بأرغفـةٍ كثيـرةٍ، يتغيـرُ عـددُها حسـب حالتـه المزاجية، ثم يغادرُ العشةَ وينطلقُ.

يسـيرُ وفـي رأسـه تـدوُر الأسـئلةُ كالـدبابير حـولَ العسـل، ويمـرُ علـى الجسـر الطينـي المتيـبس بـين الحقـول الخضـراء، هـاتفٌ يطـرقُ رأسـه عن شر يقتربُ، يشعُر هو به ولا يشعرُ الناسُ.

ويُحدثُ نفسه، يشعرون، ، يشعرون، ، كعلمٍ بالغيب يكادُ يكون. وينفخُ، تظهرُ ليمونتان صغيرتان على خديه للحظات وتختفيان، وتنتقل أناملـه فوق فتحتات الناي الست، ثم تتحررُ الأرواحُ المعذبةُ من فوهته الصغيرة وتطيرُ إلى الظلال تحت أوراق التوت اليانعة بالثمار البيضاء والحمراء والسوداء، كأنَّما تختصرُ الحياةَ في ثلاثةِ ألوان.

ويترنَّمُ.. ويندلعُ صوتُهُ الشجيُّ:

(أنا الابنُ والآبُ والروحُ والملكوتُ

أنا ابنُ الهباءِ الطويلِ وعرَّافُ ما لا يكونُ

وما لا يَمُوتُ) *

في صباه كان يصعد إلى سقف العشة، ينتظر في كل ليلة غير مقمرة ملاكاً مجنحاً، بأربعة أجنحة، يبلغه بقرار الاصطفاء، ويعطيه صحًفا من الذهب، ويأمره أن يبلغ الرسالة، ويطول انتظار رضوان، ويبلغ الرابعة والعشرين، ويفقد حبيبة قلبه، وتموت وسرهما معها، لا يتحدث مع أحد عن أسرار حبه ل"بدرية"، تمنى كثيرا أن يقتل قاتليها، واحدا، اثنين، تسعة، وتمر أيام أحزانه ثقيلة ويترنم ويحرف الأشعار

(ما للسنين مَشْيُهَا وئيدا

أفرحةً تحْمِلنَ أم عَديدا) *

ويلتقي الدرويشَ عابرَ السبيلِ ويضيفه على بطة، ويتحدثان، ويقرأ الآخر له الكف، يشد حاجبيه مرات ويبتسم مرة، يخبره أنه شخص ناري لا يطيق الانتظار ولا يقبل الانكسار، ويقاطعه رضوان :كان إيليا أبو ماضي يقول ذلك في قصيدة سلمى، ويستمر الدرويش : لقد عشت سنوات عمرك الفائت كفارس الفرسان، تنتظر اصطفاء الخالق لك، لا رسالات بعد محمد ولا علامات، القليل من الرسائل والعلامات ستختار أصحابها بدقة، لا تجهد نفسك كثيرا، عشت كعنترة لسنين طويلة، ما رأيك أن تجرب الطريق الآخر مرة! لن تخسر شيئا، ومضى العابر في سبيل العابرين، لكنه خلف وراءه رضوان جديدا.

سنوات أخرى تمر، لم يعد للجامعة لإكمال دراسته، تركها في منتصف الطريق، كعادته دائما، ويتذكر كلمات الأغنية التي أسمعتها له "بدرية" كثيرا (أقولك رأيي م الآخر.. ما بتكملش للآخر).وأخذ يعتزل الناس، والأنانية والحاقدين، يقرأ وينام ويأكل ويعزف على الناي، يوسوس هو لوسواسه الخناس، ماتت "بدرية" وماتت جمرة الإحساس. ويضحك الآخر ساخرا ويهتف به، لنرى ماذا سيحدث قبل نهاية الطريق. ويعود لسقف العشة والانتظار حتى رأى قمرا بساقين وذراعين وزوائد أخرى تطفئ العينين.

وصار يصعد لسقف العشة كل مساء، لم يعد ينتظر وحيا يهبط من أي سماء، وفي الليلة التي لم تفتح تلك اللؤلؤة شباكها فيها، أدرك أن الطبل والمزامير والأنوار، التي تضيء ليل القرية الهادئ، هي حفل

زفـاف. يومهـا أدرك أنـه يشـاهد الحيـاة فقـط، واعتبـر أن ذلـك هـو عـدوى فيروسـية مـن معاشـرة الأرواح فـي الكتـب لفتـرات طويلـة، وتحـت ظـلال الوحدة المعتمة، تحول رضوان الجبل، لدرويش مسكين.

نـزع الأفكـار المنغصـة مـن رأسـه، ونشـط علـى الجسـر، يـدب كأسـد جـريح، و يرفـع فـلاح قصـير القامـة ظهـره المحنـي، ويظـل ممسـكا بيـد الفأس وهو يزرع قدميه في طين الأرض ويقول

: صباح الخير يا رضوان يا "أهبل."

يهـبط رضـوان مـن عالمـه، إلـى أرض النـاس، يتوقـف عـن المشـي، ينظـر للفلاحـات المنتشـرات فـي الأرض يمينـا ويسـارا، ثـم ينظـر بحـدة للفـلاح ويقول: الملافظ سعد يا سعدون يا بقرة.

يضـحك الفـلاح، ينظـر لزملائـه الفلاحـين، يبصـق ريقـه فـي كفيـه، يمسـك الفأس بيديه ويرفعه للأعلى ثم يهوي به على الطين.

تقول زوجته: لا تشاكس رضوان يا رجل، إنه ثور جامح.

-أعـرف، لكنـه طيـب ومسـالم، لا تخـافي يـا مسـتكة، عمـلاق رحـيم لا يؤذي أحدا.

ويشـق رضـوان الأرض ويسـير باتجـاه مقـابر القريـة، أمـام قبـر وحيـد يجلس ويضع بين شفتيه الناي.

المقبرة غنية بالخضرة والأشجار، تصل أذنيه زقزقة عصافير، في يده اليسرى عنقود عنب، في كيسه القماش المعلق على كتفه كتاب، يرتدي جلبابا أبيض وحول رقبته مسبحة من ألف حبة، وعلى رأسه طربوش أحمر.

يتنهد وينظر للقبر الوحيد ويقول :

(من تراب وإلى تراب نعود)

يرفع صوته، يهز رأسه، يضع أذنه على باب القبر، يسترق السمع. يجلس أمامه القرفصاء، يضع عنقود العنب في حجره، ينظر تجاه الطريق الزراعي وحقول الذرة والقمح، يحتضن الناي بيديه، يبدأ العزف، ينساب لحن حزين، ويتحرر الصوت العذب.

يرفع وجهه وينظر للشمس والسماء، ثم للعصافير التي حجزت مقاعدها على أغصان أشجار النبق والتوت.

يشير رضوان إليها بيده، يتخيلها فلاحات جميلات وبنات صغيرات تنصت لغنائه بحب ولهفة، ويطلق صوته مرة أخرى. (يا إله الكل كن لي) ويسبح في بحر الذكريات العظيم.

أنهى العزف، وضع الناي في حجره، قطف حبات عنب وقذفها لفمه، سمع أصوات أقدام تخشخش فوق أعواد الذرة اليابسة فالتفت ونظر.

كـان سـميح الشـاب الوسـيم خـريج الجامعـة، والـذي يعمـل حفـارا للقبـور يتجـه إلـى القبـر المسـتوحش الوحيـد، يحمـل علـى كتفـه جـوالا بـه رمـل وفـي يـده اليسـرى جـركن مـاء، يضـحك بصـوت مرتفـع وينظـر ناحيـة رضـوان ثـم يلتفـت لزميلـه الطويـل البنّـاء، أكـرم، خـريج الجامعـة وصـديقه المقـرب، والـذي يسـير وراءه حـاملا شـكارة أسـمنت علـى الكتـف وفـي يده الأخرى كيس أسود كبيرا.

-هل يوجد في هذه القرية أعقل من هذا المسكين يا أكرم؟!

فهـم سـر الحيـاة مبكـرا، يبـدو أن اعتـزال النـاس وإدمـان قـراءة الكتـب تصـل بـابن آدم إلـى شـاطئ الحقيقـة والجمـال أحيانـا! انظـر إليـه، إنـه يعـيش الحيـاة ببسـاطة وتسـليم، لا يملـك سـوى هـذا الجلبـاب الـذي أعطـاه لـه حسـن الصـواف، أمـا الطربـوش فـلا أحـد يعـرف مـن أيـن حصـل عليـه، لقـد رأيـت رضـوان وهـو يصـنع النـاي ويحفـر ثقوبـه السـتة فـي البوصـة ببراعـة ثـم ينفخ فيـه فتصـدر ألحـان عجيبـة، كـل مـرة أسـتعير منـه النـاي وأجـرب لا تصـدر سـوى أصـوات مزعجـة، أمـا هـو فيسـحر الأسـماع بعزفـه، ذات مـرة فـي الصـباح البـاكر، كـان جالسـا علـى شـاطئ الترعـة ويعـزف ورأيـت العصـافير واليمـام تـدور فـوق رأسـه طربـا وتزقـزق كأنهـا تغنـي معـه، ثـم تنـزل تباعـا وتقـف علـى ركبتيـه، ويضـع لهـا حبـوب القمح فتأكل من راحتيه.

تنهـد أكـرم وبـدأ يخلـط الرمـل بالإسـمنت فـي القصـعة الصـاج، رفـع وجهـه ناحية سميح واسترسل

: رضوان مليء بالأسرار، سمعت من الصواف أنه كان يدرس في الجامعة، لا نعرف له عائلة، غير أمه الراحلة، منذ سنوات وأنا أراه في شوارع القرية، مرة يشبه أستاذا في جامعة ما، ومرة يبدو ككاهن مصري قديم، ومرة كعمدة حكيم، ومرات كثيرة كمجنون، أظن أنه سيتم الأربعين قريبا، أتذكر عندما رأيته يصطاد الخفافيش قرب غروب الشمس، أحضر بوصة طويلة، ربط فيها خيطا يزيد عن متر وفي نهايته سنارة (شص) ظل يديرها فوق رأسه كمروحة، ورأيت خفاشا يدور خلف السنارة اللامعة، ثم أمسكها بفمه في لمح البصر، أمسكه رضوان وبينما يستخرج السنارة من فمه الذي يشبه فم الضبع حتى عضه الخفاش عضة خاطفة جرحت إصبعه ونزف، صرخ رضوان وظل مستميتا على الخفاش ولم يتركه وهو يتأوه، وقتها كان يشوي الخفافيش والضفادع والقراميط على نار قضبان الذرة الشامية وأعواد القطن الجافة. حسن الصواف، هو الذي اهتم لأمره وتكفل برعايته، بعدما اعتزل الناس، لا يضع في فمه لقمة قبل أن يطمئن أن رضوان أكل وشبع، كل يوم يوزع عشرات الأكياس من الدجاج والأرز والزيت لكل أقاربه من فقراء قريتنا، وحتى الأغراب، حتى أنا وأنت، غير المعونات الشهرية والأسبوعية، ومنذ ظهور هذا الوباء، أصبح رجال ونساء وشباب كثيرون بلا عمل، والصواف لم يتردد لحظة في مساعدتهم ولم ينكمش رغم مرور ستة أشهر كاملة على الحجر والحظر، جاع الناس واسودت الحياة في وجوههم لكن حسن الصواف، أصبح قطرة عسل تخفف مرارة الحياة في أفواههم.

قعد سميح على ركبتيه، كان قد انتهى من فتح باب القبر القديم، مسح بيده على اللوحة الرخامية التي لونتها الشمس والرياح، قرأ المكتوب: قبر عائلة المرحوم، مظهر الفيومي، ثم حفن الرمل بيديه وألقاه داخله. وقال لصديقه

: لو فعل أثرياء القرية مثل حسن لتغيرت الحياة وصارت جنة، ثم نظر ناحية رضوان، وقال : الصواف يحمل الدجاج والبط مطهيا مع الأرز والفاكهة إلى عشة رضوان، كأنه أخ شقيق، لكن هذا الدرويش ما يزال يشوي الخفافيش، رأيته ذات مرة، يعزف على الناي وخرجت إليه الثعابين من الأحراش، لطم أفعى على وجهها فلدغته، فقفز مذهولا، ظننت أنه سيموت خلال دقائق، لكن لم يحدث له شيء، النخيل العالي، في غيط الغصناوي، به عدة نخلات شاهقة ورفيعة، لا يجرؤ أي إنسان على صعودها، والغصناوي لا يجد أي شخص يمكنه صعود نخله العالي وجمع بلحه سوى رضوان، وبدون فائدة تفشل محاولاته في إقناعه بارتداء حزام الأمان الذي يرتديه جامعو البلح، قريتنا كلها تتذكر يوم سقوطه من أعلى النخلة، عندما سقط ظل ينحرف بقوة ناحية اليسار حتى سقط في الترعة، كان الأطفال يصرخون ويهللون والكبار يحبسون أنفاسهم، ووجدوا رضوان يخرج من الترعة وهو يقبض بيده على قرموط ضخم، ولما تجمع الناس حوله استغرقوا في الضحك، يومها سأله الغصناوي: كيف سقطت وأنت منذ سنين تصعد النخل العالي ولم تسقط أبدا؟ ضحك الدرويش

ورفع القرموط أمام أعين الناس وقال: كان يفلت مني دائما، هذه المرة كان النذل يتزوج، وضحك الناس، ذات مرة قالت لي مهجة بائعة الخضار: أن ما فعل برضوان هذه التغيرات الكبيرة هو الحب، وأنه أحب فتاة جميلة طويلة مثله من عائلة الوكيل، من أقارب الشيطان فرحات، وكان من المستحيل أن يزوجوا "بدرية" الفاتنة لرضوان الفقير المعدم ابن ريحانة الخبازة، زوجة السفاح. وأقسمت لي أن كل المجانين الذين نراهم في القرى والمدن، أصبحوا هكذا بسبب امرأة ما، وأن "بدرية" كانت جميلة جدا، عيناها عسليتان كلؤلؤتين ذهبيتين، وشعرها الأشقر الطويل يتوهج كأنه نار تلفح الأعين، وعلى خدها شامة تفتن الناظرين، وبينما يتمناها كل أثرياء القرية وكل من رآها من أهل المدينة والقرى المجاورة، وقعت الحسناء الفاتنة في حب رضوان .

وقف رضوان فجأة، كأن رصاص الكلام اخترق رئتيه، فسكت سميح، ظل يهتز بعصبية للحظات ثم هدأ، ألقى حبات عنب في فمه، تحرك حتى أصبح أمام باب القبر، انحنى ونظر إلى الداخل وأطال النظر والصمت، وفي حركة مفاجئة أدار رأسه تجاه سميح وقال: القراميط لم تعد تكبر في ترعتنا، أصطادها أيام الأرز، يا خريج الجامعة الفرنسيون يقولون لك: فتش عن المرأة.

- هل أحببتها حقا يا رضوان؟

- رحمها الله، دفنوها في قبر غريب مجهول، كانوا يخافون مني، الأشرار توهموا أنني سأنبش قبرها!

- يا لطيف، أفكار شريرة ، لابد أنها مشورة فرحات نفسه.

- في قريتنا، لا يستحي ابن الإنسان من مس جاموسة بكر، يحق لهم بالطبع أن يخافوا على ابنتهم الميتة من مجنون مثلي، وضحك بمرارة.

ضحك سميح بعد أن زالت رجفته من نظرة رضوان الحزينة الحادة، وقال له: تبدو الآن في منزلة الحكيم يا قارئ الكتب، أخبرني قبل أن تعود إلى منازل الدروشة، ماذا ترى داخل القبر؟

ظل رضوان يهتز، وضع الناي تحت إبطه ثم قطف عدة حبات عنب وأعطاها لسميح وهو ينشج : روح وريحان، زقوم وخذلان.

تناول سميح حبات العنب وأكلها وقال له : هل ترى أنهار الجنة وأشجارها العامرة بالفاكهة، ثم لكزه في صدره برقة وغمز بعينه، والحور العين اللاتي تظهر أوراكهن من وراء اللحم؟

انتفض رضوان وقطف حبات عنب وتحرك ناحية أكرم وشهق : عليك أن تزرع جنتك هنا أولا، "بدرية" كانت حور عيني التي تخصني، هناك.. لا أريد غيرها.

أخذ أكرم حبات العنب من يده وأكلها ثم قال : ألم تلحظ شيئا يا سميح؟

- هل هذا العنب من أشجار قريتنا؟ لم أتذوق عنبا مثله في حياتي.

- كنت سأقول لك نفس الكلام، لكن ظننت أن جوعي وعطشي تسببا في شعوري بحلاوة وغرابة هذا العنب، لا أحد يعلم من أين جاء به.

-هل نحن في موسم عنب؟

- يا أكرم الصوب الزراعية أدخلت المواسم في بعضها، وهذا العنب الأحمر طويل وكبير وطعمه مختلط كأنه مهجن بالبرقوق والكريز.

قام رضوان وفتح الغطاء الأحمر لجركن الماء، ثم رفعه بسهولة ويسر، وشرب حتى بلل صدره.

- لو صدم سيارة لقلبها.

- أظن أنه يملك قوة عشرة رجال وربما أكثر.

- انظر إلى عينيه ووجهه، إنه مليء بالسعادة والرضا وراحة البال، دخل بيت عبد المجيد وهو يحترق، أنقذ طفلة رضيعة حاصرتها النار، وخرج بها سالما، البطانية التي كانت على رأسه وكتفيه، لم تتشبث بها النار، كأنها تستحي أن تحرق الإنسان الطيب!

نظر رضوان للسماء وقال : النار قالت لي : ادخل من اليمين واخرج من اليمين.

قهقه سميح وقال: أنت خفيف كالرياح، قوي كالإعصار، حتى وأنت تسير تبدو كغيمة تجري، وكنت تعرف البيت والغرف ، فدخلت وخرجت كالسهم.

قال رضوان وفي عينيه نظرة ماكرة: صحيح، لا أحد يلعب مع النار، فهي تحرق المؤمن كما تحرق الكافر. لكن ليس هذا كل شيء يا سميح، كان فوقي غطاء أقسم لك، وأنا لم أفعل شيئا سوى أنني توكلت عليه.

شهق سميح ولمعت الدموع في عينيه، وشعر فجأة أن رضوان صار كبيرا ومهيبا في عينيه، أضاءت في ذاكرته حكايات كثيرة، سافر في الزمن البعيد، تذكر إصرار النمرود على إحراق نبي الله إبراهيم، بنوا له بنيانا من الأخشاب والأشجار ليحرقوه فيه، هبط جبريل من السماء وقال لإبراهيم : ألك حاجة أقضيها لك؟

قال: أما عندك فلا !

أشعل طواغيت النمرود النار فالتهبت وارتفعت ألسنتها أمام الحشد المتجمهر لمشاهدة تنفيذ الإعدام حرقا، كانت المفاجأة صاعقة، عندما وجدوا النبي إبراهيم سليما معافا لم تمسسه النار أصلا.

تفرس الدرويش في وجه سميح وابتسم، ثم قذفه بحبة عنب، وقال: لقد سافرت بعيدا ، ما لك تنشغل بمجنون أذلته بعوضة!

بهت سميح وقال : تدهشني كل يوم أكثر يا رضوان، بالله عليك كيف اخترقت عقلي وقرأت ما فيه؟ أتمنى أن تحكي لي كل شيء عن حياتك اللغز، وقدراتك المخيفة.

قال رضوان: لكل وقت أذان، وكل شيء مقسوم، إذا قدرت بالحيلة والمكر والقوة أن تأخذ ما ليس لك، سترى الأمور تبدو كأنها تمت واكتملت وتضحك الحياة، لكن حين يأتي الوقت المعلوم، سترى كيف تنقلب الأمور، وتدفع الأثمان، لن تأخذ شيئا أبدا غصبا من يد الله، حتى خطاياك.

نظر أكرم لصديقه وقال: فعلا كل شيء مقسوم، أنت مثلا كنت متفوقا في دراستك طوال عمرك، وتخرجت من كلية الآداب وماذا تعمل؟ وضرب كفا بكف ولمعت عيناه.

-لا تحزن يا أكرم، أنت لا تختلف كثيرا عني، كنت ذكيا ومتفوقا وتخرجت من كلية الألسن ودرست اللغة الألمانية وأين ذهبت بك الأيام؟ ها أنت معي في هذه المهنة القاسية، مرت خمسة أعوام على تخرجنا من الجامعة ولم يتم توظيفنا، شاركنا في مسابقات الوظائف، وتم تعيين خريجين من دفعات بعدنا وتم استبعادنا، وضحك بمرارة وسخرية وهز رأسه آسفا، ثم استغرق في نعي نفسه وصديقه.

- وظيفة مقابل خمسين ألف جنيه، تدفع ليتم تعيينك، بلاء لا تشفى منه بلدنا أبدا ولا يفيد معه أي دواء، ضيعتنا المحسوبية والإكراميات

والضـمير المصـفاة! كورونـا الحقيقـي قـديم جـدا فـي هـذه الأرض، ينتقـل مـن جيـل إلـى جيـل، يتـوحش ويتطـور ويحمـل أسـماء جديـدة، نـراه ونلمسـه ونشـمه لكـن لـم نهزمـه أبـدا، حتـى أصـبحنا فـي صـفحة التـاريخ المهملـة، جربنـا حظنـا فـي العمـل السـياحي فكانـت مأسـاة، إمـا أن نتحـول إلـى قـوادين، أو نبحـث عـن عمـل شـريف أكثـر رحمـة وطهـارة، عملنـا فـي السـباكة والمحـارة، عملنـا فـي المـدارس الخاصـة بـدون توظيـف حقيقـي.. بالحصـة، وكنـا جـوعى بحـق والـدخل لا يكفـي لـدفع فـواتير المـاء والكهربـاء، والنـاس تنظـر إلينـا كأشـخاص نـاجحين لامعـين، هيبـة وأبهـة وبطـون خاويـة وجيـوب فارغـة دائمـا ، سـافرنا مـن شـرقها لغربهـا، حاولنـا السـفر لـدول أكثـر ثـراء ونمـوا، لكننـا فقيـران لا نملـك تكـاليف السفر والفيزا، ثم دمعت عيناه وبكى.

قال أكرم: نحن لا نكذب ولا نتجمل ! وسمعوا صوت إطارات.

- أظن أن هذه سيارة حسن الصواف تتجه نحونا.

أوقـف الصـواف سـيارته، وألقـى السـلام، ثـم حمـل ثلاثـة أكيـاس بهـا وجبات جاهزة ، وتقدم ناحية القبر : كيف الحال يا شباب؟

رفـرف رضـوان كعصـفور وعـانق حسـن وقبلـه، وقـال: حسـن الطيـب، الله يرضى عليك ويرحم والديك.

أعطـى حسـن كـل واحـد مـنهم كيسـا وقـال لهـم : بالهنـاء والشـفاء يـا أحبـة، الشمس قاسية اليوم، يوليو لا يكون لطيفا أبدا، هل ستتأخر الجنازة؟

رد سميح : نحن ننتظر، لقد اتصل بنا الأستاذ ماجد المر وكيل النيابة الشاب ابن المرحومة علياء وطلب منا تجهيز القبر، وقد فتحته وهيأته.

تحرك حسن ونظر داخل القبر ودمعت عيناه: أهذه العظام القليلة التي كومتها في جانب القبر هي ما بقي من عائلة الفيومي طوال السنين الماضية؟

قال رضوان: أطياف وتراب وعفاريت مغدورة أيضا! القبور تمشي إلى بعضها البعض وتستأنس العظام بالعظام.

اقترب سميح ونظر وقال: نهاية ابن آدم، الهيكل العظمي يبلى مع مر السنين وتبقى حبة عظم أشبه بناب الذئب، لا تبلى أبدا، هل العفاريت المغدورة لديها ناب ذئب يا رضوان؟

كان رضوان يتفحص غداءه ويتمتم: اسمه عجب الذنب. ثم مد يده بفص الصدر الداخلي الناعم ليعطيه لحسن: كل مع أخيك، ولا تأكل وحدك.

شكره حسن وربت على ظهره: كل أنت يا غالي بالهناء، ثم رفع يده بالسلام، وركب سيارته وانطلق. سميح تبعه بعينيه وقال: سيطوف على كل فقراء القرية ويوزع عليهم الطعام. أخذ رضوان يهتز ويلتفت ناحية الطريق الزراعي ويتقافز في مكانه : المشهد حزين.

- يبدو أن الجنازة تقترب يا أكرم

- لم يظهر أحد، لا أرى شيئا حتى نهاية القرية.

- هـو يـرى!. طـار فـوقهم غـراب أسـود وارتفـع صـوت نعيقـه فـي الحقول، ثم أعقبه صوت سرينا عربة إسعاف.

*البيتان للشاعر الكبير / السيد النماس

*البيـت مشـهور لأميـرة عربيـة هـي الزبـاء بنـت عمـرو، أصـله (مـا للجمـال مشـيها وئيـدا. أجندلا يحملن أم حديدا)

2

توتر رضوان بقوة وبكي ودار حول القبر.

وقف سميح لينظر ناحية الطريق الرئيسي

- لقد ظهرت سيارة الإسعاف، كأنها ثمرة قرع عسل ضخمة تشق الغبار باتجاهنا.

أشار أكرم في قلق إلى وراء سميح

- انظر خلفك أشم رائحة الغضب تتوهج تحت أقدامهم، العمدة وناس كثيرون من القرية يتجهون نحونا، منظرهم لا يريحني.

استدار سميح ونظر للجمع المتحفز

- معك حق، منذ جاءنا الاتصال صباح اليوم بفتح قبر عائلة المرحوم مظهر الفيومي، عرفت وأنا في طريقي إليك، أن العمدة والناس يرفضون دفن الدكتورة علياء في مقابر القرية.

قال أكرم: سمعت هذا الكلام ونحن نشرب الشاي على المقهى، وشب واقفا بجوار زميله ورضوان خلفهما كظل شجرة.

- الدكتورة علياء ماتت وهي تحاول إنقاذ أرواح الناس من وباء كورونا، وما يحدث الآن لا يليق بما قدمته من تضحية.

أشار أكرم ناحية الطريق

- هناك سيارة تتجه نحونا أيضا.

التفت سميح بكامل جسده، آها، هذا رشيد عبد الغفور، ومن التي تركب بجواره؟

- لابد أنها خطيبته إلهام الدكتورة الشابة، لكن ما الذي جاء بهما؟

- أظن أنهما يعرفان الطبيبة، و أبناءها.

التفت أكرم تجاه الطريق الترابي

- معك حق الإسعاف وصل، هيا بنا لنساعدهم في إحضار النعش.

- انتظر يا أكرم ليس لدينا كمامات واقية ولا قفازات.

- لقد اشتريت كمامات وقفازات، وزجاجة كحول أيضا، ومد يده وأخرج كيسا أسود من شكارة الجبس!

التفت أكرم للجهة الثانية ورأى العمدة والناس، ثم قال لصديقيه: إنهم ينظرون إلينا بغضب. ثم حاول إعطاء رضوان كمامة فرفض.

جذب أكرم رضوان من يده برفق، وجلس الثلاثة حول القبر.

تقدم ابنا الطبيبة المتوفاة، برفقة عاملي إسعاف يحملون نعشا ملفوفا بعلم مصر وأنزلوه على الأرض، عندئذ تقدم العمدة ضياء الوكيل، يتبعه الحاج فرحات، عمه وحماه وابناه علوان وحسان، وعدد كبير

من أهل القرية، ثم نزل رشيد من سيارته ومعه إلهام خطيبته وأصبح الجميع حول القبر، وأحاط الناس المتجمهرون بالمقابر من الشرق والغرب.

لم يدم الصمت، جاء صوت ضياء الوكيل كزئير أسد، وهو يشير بأصبعه تجاه النعش قائلا: لن نسمح لكما بدفن أمكما في قريتنا، هذا الوباء قتل مئات الألوف من الناس في دول عديدة، ولن أغامر بحياة أهل القرية وحياتي من أجلكما! لو تكرمتما وبدون مشكلات ادفنا أمكما في مكان آخر.

وعلى الفور فتح الحاج فرحات كوة الفرن الآدمية التي تسمى فما وصرخ بصوته المبحوح: كأن الأرض ضاقت بكم فلم تجدوا غير قريتنا الصغيرة لتحملوا إلينا هذا البلاء، لن تدفنوها هنا إلا على جثتي.

ضرب ماجد وكيل النيابة، كفا بكف وقال: ما هذا الظلم يا حاج فرحات؟

ما هذا الكلام يا جناب العمدة؟ أنت شخص مسؤول، ولست بحاجة لكي أذكرك أن إكرام الميت دفنه، وأمي سيدة ميسورة ولم تكن بحاجة للعمل والراتب، وأدت واجبها بكل إخلاص ومحبة لمساعدة المرضى وعالجت المئات من المصابين، رغم معرفتها بحجم الخطر وها هي الآن قد دفعت حياتها ثمنا، أهذا جزاء إخلاصها وتفانيها، أهذا جزاء مجهودها وتضحياتها؟ تريدون منع دفنها في بلدها، في قبر

أبيها، هل هذا كلام يعقل؟ هل هذا موقف طبيعي من إنسان متعلم ومسؤول تجاه طبيبة دفعت حياتها ثمنا لخدمة المرضى؟

تقدم فرحات العجوز خطوتين مستندا على عصا أنيقة، وقال: هذه الخطبة يا سيادة النائب تقولها في المحكمة أمام القضاة والمستشارين، هنا قرية وبها أرواح، وهذا الوباء لم يرحم أحدا وليس له علاج حتى الآن، وإذا دفنت أمك في أرضنا، فسوف ينتشر الوباء في الأرض، وكما تعرف فإن الفلاحين يعملون في الحقول، وسيصيبهم الوباء، ويذهبون إلى الجامع والسوق والمقهى والبيوت، وينتقل الوباء منهم إلى الحريم والعيال، وتصاب القرية كلها، هل ستنفعنا خطبتك الفصيحة عندها؟ ها ؟ وأشار بعصاه تجاه وكيل النيابة مهددا فبدا كمن يستخدمها للتظاهر بشيخوخة زائفة، رغم أنه ما يزال رجلا قويا رغم تخطيه السبعين بعامين.

انتفضت الشابة الحسناء طالبة كلية الطب إلهام البحيري، خطيبة رشيد بطل كمال الأجسام وطالب الإعلام المتفوق، وتقدمت خطوات للأمام ونظرت ناحية العمدة والناس، وقالت بعد إذنك يا جناب العمدة هل من الممكن أن تستمع لي قليلا؟

العمدة ضياء أظهر نفسه غير مهتم رغم توتره الشديد لوجود إلهام ونظراته الخاطفة نحوها، ثم قال : أسمعك يا دكتورة.

شبكت إلهام أصابعها أمام بطنها في توتر، وقالت :دكتورة علياء، هي من أسست الوحدة الصحية في بلدنا، وأخلصت في عملها عمرها كله، عالجت الناس، وأحبتهم كابنة من أبناء القرية، أنت نفسك مدين لها بحياتك، فقد حكت لي ذات مرة، أن التيفويد قتل أكثر من مائة طفل في قريتنا وكاد يقتلك، وأنها أنقذتك وسهرت على راحتك، حتى نجوت من الموت، بعد أن يئس أبوك واشترى كفنا لك، هل نسيت؟ هل نسيت أن ثلاثة أطباء فحصوك وقالوا لأبيك وأمك، لا يوجد أمل، لكن دكتورة علياء ظلت تنعش قلبك وتحقنك وتحممك وتضربك على ظهرك وبطنك، ثم قلبتك للأسفل ونفخت في خاتمك ودبت الحياة فيك، البلدة كلها تعرف قصة الطفل الوحيد الناجي من التيفويد الذي أنقذته علياء مظهر بنفس هواء، كيف نسيت يا عمدة؟ وحسب معلوماتي فهناك قرابة بين عائلة الفيومي والوكيل غير الأنساب!

حك ضياء أنفه ونظر للأرض.

قال رشيد: أرجو أن تتراجع عن موقفك تجاه السيدة التي أنقذت حياتك من الموت وهذا الوباء ما يزال يفترس الضحايا بقوة، ولا أحد يعرف على من سيأتي الدور، ويتعرض لهذا الموقف الصعب، فيحرم من أبسط الحقوق في الدنيا، حق الإنسان في قبر يستر موته وعورته وضعفه، نحن من تراب يا عمدة، ومصيرنا جميعا إليه، انظر إلى القبر، والتفت خلفه وأشار للقبر المفتوح. أيمكن أن نتعارك هنا من أجل منع هذه الطبيبة المكافحة المخلصة، من الشعور بالراحة

الأخيرة، من اطمئنان روحها أنها مستورة في قبرها، لا تكن أنت من يفعل هذا العمل الشنيع، لن تسامح نفسك أبدا.

مسح ضياء عينيه بأصبعيه وخفض رأسه ليخفي تأثره ودموعه، والتفت إلى الناس وقال: مجيئي إلى هنا كان خطأ كبيرا، كل حي يرجع إلى داره ويكفي ما حصل.

صرخ الحاج فرحات: قلبك لين يا ابن أخي، ارجع أنت إلى دارك لكنني لن أسمح بهذه المصيبة أبدا إلا على جثتي.

لكن ضياء لم يتراجع وانسحب من المكان وتبعه عدة أشخاص، بينما وقف عمه ومعه ابناه و مجموعة كبيرة من أهل القرية.

صرخ علوان، متحدثا لوكيل النيابة: سيارة الإسعاف لم تنصرف بعد، يمكنك أخذ المرحومة ودفنها في قرية أبيك، بهدوء دون الحاجة لكشافات وأنوار، لا تتأخر لليل.

جمع ماجد قبضتيه وعض على شفته السفلى في آسف ودهشة لمهندس الكهرباء علوان : يعني العمدة تراجع عن موقفه ، وأنت يا باش مهندس ووالدك وهؤلاء الناس ما تزالون مصرين على منعي من دفن أمي؟ هل هذا عدل؟ هل هذه أخلاق الناس الطيبين؟

تقدم الحاج فرحات خطوة وهو يلوح بالعصا وقال كثور يخور: أخلاقنا هكذا ونحبها كما هي، لا ننتظر طلتك البهية لتعلمنا الأخلاق يا سيادة النائب.

وأشار فرحات بهزة من رأسه للجمع فتقدم ثلاثة فلاحين بالفؤوس تجاه القبر.

قفز سرور الشاب الابن الثاني للطبيبة ، وقف فاردا ذراعيه، صانعا من جسده النحيل درعا بشريا لحماية القبر وقال في حزن وأسى واستعطاف: هل وصلت الأمور لهذا الحد، كيف تجرؤن على التفكير في هذا العمل الشيطاني؟!

تحرك رشيد وانضم لسرور وتبعته إلهام وشكلوا حائطا بشريا في وجه الفلاحين الثلاثة، ثم زعق رشيد بقوة في وجوههم قائلا: أبعد رجالك عن القبر، للموت حرمته يا حاج، تذكر أن الله سيحاسبك على أفعالك وقسوة قلبك.

لكن الحاج فرحات أعطي إشارة بالعين لابنيه علوان وحسان ومجموعة من الفلاحين لإبعاد الشبان عن القبر بالقوة.

عندئذ تقدم حسان نحو الشابين والفتاة وهز كتفيه في استعراض للقوة، وقال: ابتعدوا عن القبر قبل أن لا ينفعكم الندم.

ارتفعت أصوات الفلاحين المتجمهرين حول القبر الرافضين لدفن الطبيبة في مقابر القرية، كأنهم قبضة واحدة من طين جهنمي.

تجرأ علوان واندفع وجذب سرور من ياقته، ونفث كلماته في وجهه فتطاير الرذاذ وأغرق وجه الشاب الجامعي المرهف النحيل كأنه بصق عليه، وقال بحدة : ادفن أمك بعيدا عن أرضنا ، ثم جره ودفعه ناحية النعش.

تعلق رشيد في ذراع علوان لمنعه من زحزحة سرور، وبدأ عراك وتدافع بين الشابين والفتاة وجموع الفلاحين الغاضبة.

تجرأ حسان وضرب إلهام بظهر يده على وجهها، فصرخت وسقطت على جانبها الأيسر، ثم اشتبك مع رشيد، الذي هجم عليه في غضب وشراسة، رشيد القوي الطويل الفارع دفعه في صدره بيديه ، فأسقطه على الأرض، عندها هجم الفلاحون على الشبان الثلاثة وكبرت المعركة.

صرخت إلهام، عندها قرر رضوان أن يفعل شيئا يكرهه، قرر أن يتعارك، لقد أغضبه مشهد الفتاة الجميلة المطروحة على الأرض وهي تبكي، وتذكر عذابات "بدرية" مع القسوة والخشونة والحبس في البيت، حتى قتلها الحزن،

فانتفض في حالة ذعر وغضب وقفز من مكانه ليحمي إلهام بجسده، تقدم حتى أصبح في وسط العراك وبدأ يدفع الفلاحين، فانهالوا عليه

ضربا وركلا، فغضب وظل يسقطهم أرضا واحدا واحدا كأنهم جدران قديمة تتهالك، وارتعب الفلاحون وتفرقوا من حوله وتراجع حسان للخلف خوفا من قوته وصرخ : سأربيك يا ابن المجانين.

رد رضوان: انبح يا ابن زبيدة.

كان ماجد يقف في زاوية من المكان جوار النعش ويجري اتصالا من هاتفه المحمول وهو لا يصدق أن تتحول جنازة أمه لفتنة كبيرة ومعركة ربما تتطور لمأساة وتقع حادثة قتل، كان مرتعبا أن يصاب أخوه سرور بأذى أو رشيد صديقه أو خطيبته، وكان يفكر في الكابوس الذي يحاصره ويخشى أن تهان أمه وهي ميتة وتنتهك حرمتها ويُلقى بالجثة في الجبل أو الترعة الكبيرة، ففكر في صديقه ضابط الشرطة وبدأ اتصالا: أنا وأخي في مقابر قرية النخيل، الأهالي يضربوننا ويمنعوننا من دفن أمي، إنهم يحاولون هدم القبر، وصمت وأنصت قرابة دقيقتين ثم تحدث: أرجوك لا تتأخر قبل أن تقع كارثة، العمدة تركنا وعاد لبيته. وأنصت لدقائق وقال: أرجوك لا تتأخر لن أنسى هذا الجميل أبدا، أنتظركم ثم أغلق الخط.

تسلل الحاج فرحات ناحية رضوان وضربه على رأسه بالعصا ضربة قوية، وظن الناس أن رأسه انشقت نصفين عندما طرطش الدم.

صرخ رضوان ثم دفع فرحات في صدره فأسقطه وهجم عليه ، لكن الطربوش الذي سقط أرضا وتكوم على بعضه من أثر الضربة شغله عن فرحات وانحنى ليلتقطه.

استغل فرحات الفرصة ونهض وتراجع للخلف واختبأ خلف مجموعة الفلاحين وهو يرتجف ويزعق صوته المختنق :ابتعد عني يا ابن المجنونة، وكان يتنفس بصعوبة.

الرعب الذي أصاب الفلاحين من قوة وبطش رضوان منح الشبان المستضعفين وقتا وساد صمت قصير تحطم كالزجاج تحت طرقات صوت سرينا عربة الشرطة.

القوة الشرطية نزلت من سيارة البوكس ومن السيارة التويوتا نزل الضابط ومعاونه، فهرب بعض الفلاحين وبقي فرحات وابناه وعدد قليل من أهل القرية، الذين وقفوا خائفين من منظر الضابط والعساكر وتلاشت قوتهم وجبروتهم وتحولوا في طرفة عين إلى خراف ونعاج.

قال الضابط لفرحات: ما الحكاية يا حاج فرحات؟ هل اختفت كل مشاكل الناس في القرية حتى تشعلها نارا؟ هل تظن أنه من حقك أن تمنع الناس من دفن موتاهم في قبور آبائهم وأجدادهم؟ هل هذه أخلاق الرجال؟

استند فرحات بيديه على العصا الأنيقة وتلعثم وجمع شتات عقله ولسانه وقال : يا باشا لم نأت إلى هنا لمنع دفن أحد، بل جئنا لمنع

وقـوع كارثـة، دفـن الـدكتورة فـي أرضـنا سـينقل الوبـاء للنـاس وتنتشـر العـدوى، وأنـت أعلـم منـي بـذلك: سـيدنا عمـر رفـض أن يـدخل قريـة عمواس لما ضربها الطاعون.

قالـت إلهـام وهـي تتنهـد ببكـاء طفـولي: حضـرتك يـا أفنـدم لـن تنتقـل العـدوى لأحـد، الجثـة موضـوعة داخـل أكيـاس كبيـرة محكمـة الإغـلاق ومعقمـة، ونعـرف الإجـراءات الاحترازيـة للـدفن، ولـن تنتقـل العـدوى لأحد، وبكت وأخبرت الضابط أنها تعرضت للضرب.

التفـت الضـابط لفرحـات ونهـره وتوعـده أن يحاسـبه علـى هـذا التطـاول هـو وابنـه ورجالـه، وطلـب مـن إلهـام عمـل محضـر فـي القسـم وقـال :سـأتابع الموضـوع بنفسـي. ثـم التفـت لوكيـل النيابـة وسـأله هـل صـليتم عليها ؟

فرد ماجد: المساجد مغلقة.

وقـف سـميح وتقـدم قبالـة الضـابط: يمكننـا أن نصـلي عليهـا هنـا ، ومعنـا جراكن ماء نظيف تكفي للوضوء.

كـان الحـاج فرحـات يهـز رأسـه ويضـيق عينيـه غيظـا ولـم يسـتطع السـكوت طـويلا فقـال: يعنـي سـتدفنونها رغمـا عنـا يـا باشـا؟ كـل أهـل القريـة لـيس لهـم قيمـة عنـدك، حيـاة النـاس لا وزن لهـا فـي نظـرك؟ لـي كلام آخر مع المأمور.

قـال الضـابط: سـنرى عواقـب تعـدي ابنـك بالضـرب علـى فتـاة وخـرق القانون وتكدير الصفو العام.

انصرف الحاج فرحات ومعه ابناه ومن تبقى من أهل القرية.

بعـد الجنـازة انصـرف الأبنـاء ورجـال الشـرطة، وعـاد القبـر وحيـدا مستوحشا لا يؤنسه سوى صوت العصافير.

3

كان العمدة ضياء يجلس ويترقب الأخبار في المنظرة البحرية المطلة على نهر النيل في منزل العمودية.

قال لزوجته: لقد جرت دموعي يا مروة ولم أستطع البقاء والعناد، رغم تحريض أبيك وغضبه، تركتهم هناك وانصرفت، رغم أنني عمدة القرية ومسؤول عن كل كبيرة وصغيرة بها، لكن انسحابي كان أفضل قرار.

وضعت مروة ملعقتي سكر في كوب وصبت الشاي: الحمد لله أنك لم تتورط في هذه المشكلة، ورفعت رأسها وتنهدت، أرجو ألا تقع مشكلات كبيرة بسبب عناد أبي.

رفع ضياء الهاتف الذي يرن ورد على الاتصال: آلو. ثم أنصت لدقيقة وقال: دفنوها وانصرفوا. الحمد لله. والشرطة انصرفت؟ آه، لعله خير، شكرا يا شيخ زكريا.

وضعت مروة كوب الشاي أمام زوجها وسألت :دفنوها الحمد لله

- نعم وانصرفوا جميعا وأبوك انصرف غاضبا.

تركت مروة زوجها يتمدد على الكنبة في حالة حزن، ويحاول أن يغمض عينيه، فأحضرت كوافيرتا وغطته وأظلمت المندرة بإغلاق الستائر، وتركته ينام قليلا.

استيقظ ضياء على صوت الهاتف المتكرر، فجلس وقال لنفسه: لقد نمت وقتا طويلا، كأنني جائع نوم ، تمطى وتثاءب وقال : كم الساعة الآن يا مروة؟

قالت : تقترب من الثامنة مساء، ثم ناولته الهاتف.

فتح الخط وقال : سأنتظركما ، أنا في المنظرة البحرية. وضع الهاتف وطلب من مروة فنجان بن سادة.

سألته : هل أحضر لك العشاء؟

أمسك يديها برقة وقبلهما : إن شاء الله عندما يجيء الضيوف.

مسدت شعره وسألته : من؟

- الشيخ زكريا ومعه عبد الحي." اللهم اجعله خيرا " وصفع نفسه على صفحة عنقه وصرخ : ضعي فيشة صاعق الناموس في الكبس يا مروة.

- حاضر حالا.

لدغة البعوضة القتيلة أيقظت ضياء من غفلة كبيرة تحاصره، كثيرا ما تأتيه رسائل خفية عن طريق كائنات ضعيفة أو غير مرئية، ها هي بعوضة آلمته وتذكر نصف بيت شعر، أدمت مقلة الأسد، وبينما هو شارد الذهن في جبروت عمه وابنيه، ألقى زكريا السلام وصعد سلالم

المنـدرة ومعـه عبـد الحـي، رحـب بهمـا ضـياء ونـادى بصـوت مرتفـع، العشاء يا مروة بسرعة.

- ما الأخبار؟.

قال عبد الحي: فتحوا القبر وهتكوا حرمة الأموات.

أكمـل زكريـا: عمـك فرحـات عنيـد جـدا يـا عمـدة، أخـذ حسـان وعلـوان ورجلـين آخـرين، فتحـوا القبـر وأخرجـوا الجثمـان ونقلـوه علـى عربـة يجرهـا بغـل، وحفـروا ودفنوهـا فـي الأرض البـور عنـد تـل العبايـدة قـرب الجبل.

جمـع ضـياء كفيـه فـي حجـره ونظـر لـلأرض، تنهـد وقـال: لا حـول ولا قـوة إلا بـالله، مـا الـذي جـرى للنـاس؟ مـا الـذي يحـدث فـي الـدنيا؟ حتـى حرمـة الأمـوات لـم تعـد لهـا قيمـة؟ هـذه فضـيحة كبيـرة لعائلـة الوكيـل ولقرية النخيل كلها، وهل بهذه الطريقة سيشعرون براحة وأمان؟

قـال زكريـا: أخشـى أن يتسـبب اسـتخراج الجثـة مـن القبـر فـي انتشـار العدوى بين الناس، ربنا لا يحب الظلم والافتراء والبطش.

بعـد الشـاي والعشـاء انصـرف الضـيفان، وبينمـا تحمـل مـروة الصـينية إلى الداخل، قالت له : الأولاد ناموا يا عمدة.

لكـن ضـياء كـان فـي أوج اليـأس والإحبـاط والهزيمـة، فـأنزل قدميـه، وارتـدى الشبشـب، وتوضـأ وقـال لنفسـه: سأصـلي العشـاء وأدخـل، ومـد

بصره إلى جامع القرية الكبير المغلق الذي بناه أبوه منذ سنين، وقام ضياء بتجديده وتوسعته وتزيينه، ثم تنهد وحدث نفسه " عشنا حتى نسمعها بآذاننا، ألا صلوا في بيوتكم، ألا صلوا في رحالكم، لله الأمر كله."

- حرما يا عمدة ماذا كان يريد الشيخ زكريا؟

- أبوك نقل الميتة لمكان آخر يا مروة وتمزق الكيس.

لطمت خديها وشهقت، أستغفر الله العظيم، لماذا فعلتها يا أبي؟!الناس يحبون الونيس والجيرة حتى وهم موتى، لماذا تركتها وحيدة في الأرض؟ أستغفر الله العظيم.

ظل ضياء جالسا وحده يفكر في تصرفات عمه القاسية، وشعرت مروة بحزنه، شعرت برغبته في البقاء وحيدا بعض الوقت، فتركته ودخلت إلى البيت وهي حزينة مستاءة.

ارتكن ضياء بظهره للحائط وظل يفكر في الكارثة المحتملة، لو أصيب أحد منهم أثناء نقلها من قبرها، سينقل العدوى لأشخاص آخرين، وبدورهم سينقلون العدوى لغيرهم، ويتفشى الوباء في البلد، يا الله رحمتك، أغمض عينيه وطلب من نفسه أن يكف عن التفكير واسترخى، لكنه تذكر حكايات جدته عن الطاعون، حضرت أمام عينيه كل المشاهد التي صنعها خياله وهو يقرأ صفحات الموت الكاسح في كتب التاريخ، أفلام قديمة أبيض وأسود، وتملكه قلق

وإحساس مقبض وظل يحدق في ظلام الأرض الشاسعة، وقد فقدت أذناه القدرة على استقبال نقيق الضفادع وصراخ الصراصير المتواصل، وبدأ يرسم بمخيلته سيناريوهات مفزعة للموت الجماعي والهلاك، ثم تذكر فجأة أمه وأولاده وزوجته وأخوته وأصدقاءه الأحباء، ثم تذكر نفسه هو.. ورأى الحياة كلها أمامه تترنح أمام زلزلة الموت، فنهض فزعا ودخل غرفة المكتبة الكبيرة التي ورثها أبوه عن جده الوكيل ضاحي، أضاء النور واتجهت عيناه مباشرة إلى ركن المكتبة الأكبر.. التاريخ.

4

صنعت مروة عدة سندويتشات من الجبنة والبيض المسلوق وفصوص الدجاج، ودخلت وهي تبتسم بحنان ورقة على زوجها في غرفة المكتبة، وضعت الصينية على المكتب، ونظرت لضياء. تعرف أنه عندما يتوتر لا يجلس على مائدة الطعام، واعتادت أن تعد له سندويتشات وتحتال لإطعامه، لأنه سيظل لساعات مكتفيا بالشاي والبن والتدخين وينسى نفسه.

كـان واقفـا كالصـنم الرخـامي أمـام المراجـع الكبيـرة المتعـددة الأجـزاء، وتمر عيناه على الأسماء والعناوين فيعيد مرجعا ويسحب آخر.

غرفـة المكتبـة هـي أكبـر غرفـة فـي بيـت العموديـة، طولهـا تسـعة أمتـار وعرضـها أربعـة، الكتـب مصـفوفة فـوق الرفـوف علـى الجـدران الثلاثـة، والجـدار الرابـع ناحيـة البـاب يضـم ثلاجـة مشـروبات للضـيافة وبجوارهـا مكتب ضياء وجهاز الكمبيوتر.

انتبـه ضـياء لمجـيء مـروة، فابتسـم وقبـل يـديها، وضـعت زيتونـة سـوداء في فمه، وأعطته سندويتشا.

- كلي معي يا غالية

- بالهناء والشفاء، أكلنا يا قلبي.

- وضاحي ونيرة ؟

- أكـلا وأنهيـا المـذاكرة واسـتغرق كـل منهمـا فـي عالمـه، ضـاحي يلعـب ببجي، ونيرة تتابع تيك توك.

- أوف ..هذه اللعبة لا تقل بلاء عن كورونا يا مروة.

-لا تخـف أراقـب وأتـابع ولسـت نائمـة علـى أذنـي، هـذا الجيـل نـافر وملول ومستهتر ولا يحترم أحدا ولا يؤمن بشيء، الله يحفظ أولادنا.

- زمن غريب، سريع الإيقاع، قليل البركة، الجميع يتزاحم ويتدافع، الكل يحاول أن يخطف ما يمر أمامه، المساحة الفاصلة بين الحلال والحرام انهارت، قلة الذوق وعدم احترام الكبار وضعف الأمل والطموح عند شباب هذه الأيام ورغبتهم في تحقيق نجاح سهل بأي وسيلة سيدمر القيم والأخلاق وسنصل لقاع الحضيض، إذا استمر الحال على ذلك سيصبح العالم صندوق قمامة هائل باتساع الأرض.

-لا تفقد الأمل يا حبيبي في بقاء الخير والناس الطيبين، وفترة الشباب والمراهقة في كل جيل مليئة بالتصرفات السيئة والتهور، أنت كنت مراهقا وتعرف، يا دنج وان عصرك! وأمسكت يديه وضحكت.

نظر ضياء لزوجته بحنان ومسد شعرها بيده، ثم قال: الخوف يا مروة ليس من شقاوة المراهقة، كنا مراهقين، لكننا كنا مهذبين، نحترم الكبير ونتعاطف مع الصغير، ونعرف الذوق والأصول والاحترام، جيل التيك توك يلهث وراء الشهرة والدولار بأي طريقة، معوجة أو شريفة، كل التصرفات القبيحة مبررة لدى شباب هذه الأيام، هل لديك شك أنه من الصعب تحويل الكثيرين منهم لجواسيس وخائنين، لتجار أعضاء بشرية، لتجار متعة؟! هذا ما يخيفني، جيل كامل جاهز ومهيأ ليفرط في أي شيء! هل تفهميني يا مروة؟!ابنتنا لديها صديقات كثيرات، وقلت لك عدة مرات أن الفتاة حنين علام لا يعجبني حالها وتصرفاتها وأخشى على ابنتي منها.

تنهدت مروة وتحولت بهجة روحها فجأة إلى كآبة، وقالت: الله يحفظ أولادنا ويبارك لنا فيهم، بنات هذه الأيام حالهن لا يسر أحدا، وقد طلبت من نيرة أن تبتعد عن حنين وتقلل من حديثها وجلوسها معها سواء في المدرسة أو على الفيس بوك، ربنا يحفظ أولادنا يا ضياء.

قال ضياء: آمين ثم سألها عن ابنهما البكري جاسر هل اتصل اليوم.

قالت مروة: نعم. يقضي وقتا طيبا في شرم الشيخ مع صديقيه، سيعود نهاية يوليو.

-الله يهديه ويحفظه من شر نفسه، رغم أنه عاقل ورزين ومتفوق ولا يدخن، قلبي دائما قلق عليه يا مروة.

-لا تقلق روحك بالأفكار السوداء، أنت بحاجة لمساج لإراحة أعصابك.

ونهضت مروة وأمسكت يدي زوجها لتنهضه لكنهما سمعا عواء قويا.

قال ضياء: ما هذا الصوت؟! منذ أكثر من عام لم أسمع صوت ذئب بهذا القرب.

ثم تكرر العواء، وتداخل معه عواء آخر يأتي من مكان أبعد.

قالت مروة : لا توتر نفسك، ليست أول مرة تعوي ذئاب في الليل قريبا منا.

-لست قلقا يا مروة لكنني أشعر في داخلي وأحس بشيء ما.. أخشى أن تكون هذه الذئاب تنبش حفرة جديدة في تل العبايدة.

شهقت مروة وقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. هل تقصد أن الذئاب وصلت للجثة؟

-ربما.. هل تظنين أن أجدادنا اخترعوا المقابر المبنية العالية إلا خوفا من الكلاب والذئاب على جثامين موتاهم؟

خرج ضياء من المكتبة وسارت مروة خلفه، ظنت أنه سيتجه إلى غرفة النوم، لكنه اتجه إلى غرفة السلاح.

5

حمل العمدة ضياء بندقيته الحديثة المزودة بمنظار رؤية ليلية، تأكد من تذخير مسدسه الخاص المعلق بجراب جلدي تحت إبطه، وخنجره حول عقب قدمه اليمنى، ارتدى منظارا ليليا كميدالية، وأخذ ثلاثة من خفرائه، يحمل كل منهم بندقيته وذخيرته، وركبوا جميعا سيارة ضياء التويوتا ذات الكابينتين والصندوق، قاد البهنسي عوض السيارة وركب ضياء بجواره وانطلقوا تجاه الأرض البور القريبة من الجبل في المنطقة الخلاء المسماة تل العبايدة.

- خير يا عمدة؟ سأل البهنسي.

- أظن أن ذئاب التل اكتشفت جثمان المرحومة علياء.

- يا ليلة سوداء يا ولاد!

قال ضياء: لن نقترب من الجثة وتلثموا فوق الكمامة كما أفهمتكم، هذا وباء مخيف، هل سمعتم عواء الذئاب منذ قليل؟

- كلنا سمعناه يا عمدة.

- أريدك أن تستدير من الجهة الشرقية يا بهنسي، من الطريق القديم، وتتوقف على الكوبري الخرساني الذي يمر فوق الترعة، أعتقد أنني يمكنني الرؤية من هذه النقطة ومسح المنطقة كلها تحت التل بالمنظار الليلي.

-حاضر يا جناب العمدة.

مضت خمس دقائق على انطلاق السيارة التويوتا من أمام دار العمودية ثم توقفت ببطء فوق الكوبري الصغير.

أطفأ البهنسي أنوار المصابيح الصغيرة للسيارة، ولم يستخدم المصابيح القوية منذ اقترابه من المكان كما أمره العمدة، ثم سيطر الهدوء بعد إطفاء المحرك.

نزل العمدة ضياء، ونزل الرجال، في صمت تام وهدوء، يأتيهم- باهتا- نقيق ضفادع ضعيف، هسيس أوراق الغاب، نباح كلاب بعيد جدا يتردد صداه الواهن في الليل، سماء صافية تلمع نجومها بقوة في غياب القمر.

صعد ضياء إلى صندوق السيارة، رفع البطانية الثقيلة من الصندوق ووضعها فوق سقف كابينة السيارة، استند بكوعيه عليها وفتح غطاء المنظار الليلي وبدأ يمسح المنطقة بعينه من الشرق إلى الغرب ببطء وتأن عدة مرات ولم يجد شيئا!

سأله البهنسي بصوت خفيض: شفتهم يا عمدة؟

-هس هس

-طيب، سكت ، محدش يتكلم يا ولاد.

ضحك ضياء ثم كتم ضحكته بصعوبة ومسح المنطقة مرة أخرى بالمنظار الليلي، لكن لم ير شيئا.

قال بصوت خفيض: الشيخ زكريا قال أن عمي فرحات دفن المرحومة هنا، تحت التل، لكن لا أرى ذئابا ولا شيء سوى الرمل والتل.

قال البهنسي: ممكن أجرب حظي يا عمدة وأشوف.

ضحك ضياء ضحكة مكتومة وقال: مسخرة، الله يلعن شيطانك، اطلع جرب.

وقف البهنسي بجثته الضخمة القوية جوار العمدة، ارتجت السيارة تحت قدميه وهو يصعدها، أمسك البندقية من يد العمدة وتقوس ونظر عبر المنظار لعدة ثوان، وضع أصبعه على الزناد فخرجت رصاصة تزأر في الليل.

أصيب ضياء بالفزع وسأله : هببت إيه؟ هتجيب لنا مصيبة الله يخرب بيتك.

ثم أزاحه بيده وأمسك البندقية ونظر، مد البهنسي يده إلى بدن البندقية ودفعها بأصبعه برفق تجاه اليمين، فظهرت الجثة والذئب القتيل أمام العدسة.

قال ضياء : برافو يا بهنسي..هل كان وحيدا؟

-لا. يا عمدة.

-طيب.. أنت تقود السيارة وتضيء المصابيح الكبيرة ، اقترب على مهلك من الجثة.

-تمام يا جناب العمدة.

انطلقت السيارة ببطء حتى أصبحت على بعد أمتار قليلة من الجثة، ملأ الخوف قلوب الرجال الأربعة فجأة، هناك عدة ذئاب طليقة جائعة في هذا الليل، لكن ليس هذا ما يخيفهم.

أمرهم ضياء بارتداء الكمامات وتلثموا، ثم ساروا ببطء ورهبة ناحية الموت.

6

عجائز القرية وحدهم يعرفون من الذي بنى عشة رضوان الجبل، في البداية كانت سقيفة تحت شجرة كافور عالية، ثم تمددت واتسعت لعدة أمتار مستندة على جذوع أشجار كافور تمتد على شط الترعة، وكانت احدى الشجرات قد نفرت عن الصف وبرزت تجاه المدق الترابي، فبدت الأشجار مثل رقم " اثنين" وباستخدام جذوع النخل الطويلة المشقوقة نصفين، نصبت واقفة جوار بعضها البعض وتم ربطها بالحبال، فصارت أشبه ما تكون ب حاوية مستطيلة كحاويات سفن النقل.

وكان سقفها مؤثثا من فروع غليظة لشجر الكافور وأوراق خوص النخيل وقطعة كبيرة من البلاستيك لحماية ساكنة العشة من المطر، والتصقت بها أسطورة خرافية، أنها في شهر عسلها مع زوجها "عراف الجبل "، قتل رجلا وسرقه، وهرب من الشرطة للجبل، وأن ذئبا جائعا دار حول العشة، واقتحم على ريحانة عشتها وهي تتحمم في طست نحاسي، وبدلا من أن يأكلها أو يقتلها، تركت مخالبه جراحا ناعمة، على ظهرها وساقيها، وعضات طفولية على عنقها!!وهكذا ظن الكثيرون من أهل القرية أن رضوان ابن ذئب.

حاول حسن الصواف كثيرا إقناع رضوان الجبل ببناء غرفتين له جوار المسجد، ورغم أن رضوان يتولى تنظيف ميضأة المسجد ودورة المياه وغسيل الجامع وكنسه وتنظيفه، إلا أنه رفض ترك عشة

أمـه التـي ولدتـه فيهـا، واسـتطاع الصـواف برفـق ولـين إقناعـه مـرة بعـد مـرة بتجديـد العشـة وتوسـيعها، فصـب الخرسـانة علـى أرضـيتها الترابيـة، وأعـاد بناءهـا بأخشـاب السـويدي الغليظـة وقـام بتجليـدها بالصـاج مـن الخـارج وبالجلـد المشـمع مـن الـداخل، وبنـى بـداخلها حمامـا صـغيرا، واشـترى سـريرا جديـدا ومكتبـة ملأهـا بالكتـب الدينيـة والأدبيـة والتاريخيـة، وطاولـة طعـام وكرسـيين، وثلاجـة صـغيرة، لـم يسـتخدم الـدرويش ماءهـا المـثلج واكتفـى بالشـرب مـن القلـة الفخـار، و طلـب منـه رضـوان أن يفـتح نافـذتين واحـدة تطـل علـى الجـامع والأخـرى علـى الترعـة ، فكـان يتأمـل الفلاحـين والأرض ومشـرق الشـمس و المصـلين والنـاس وبيـوت القريـة وغـروب الشـمس، ويقـول :تبـدأ مـن هنـا الحيـاة وتنتهي هنا ، ما أقصرها من رحلة!

واسـتطاع الصـواف تحويـل عشـة رضـوان إلـى كـوخ أنيـق ومتـين يتحمـل بـرد الشـتاء والمطـر، ومـد إليـه خـط ميـاه مـن المسـجد القريـب، و يمـر بصـديقه الـدرويش عـدة مـرات ليعطيـه وجبـات الطعـام والخبـز، وكـان بعـض النـاس الطيبـين يعطـون رضـوان نقـودا قليلـة، عشـرين جنيهـا، خمسـة، جنيهـا واحـدا. يشـتري بهـا حلـوى وكرملـة ويوزعهـا علـى أطفـال القريـة، وعنـدما يختفـي ليـوم أو يـومين يتسـلل أطفـال كثيـرون ويـذهبون إلـى العشـة للاطمئنـان عليـه، وكـان يفـتح لهـم ويضـيفهم علـى الفاكهـة التـي تتكـدس لديـه مـن هـدايا الصـواف. ويعبثـون بالكتـب ويتـأملون

المكتبة القائمة من الأرض لقرب السقف بطول جدار كامل داخل العشة.

وكان يغني لهم ويعزف على الناي ويعلمهم محبة بعضهم البعض، ويكرر لازمتيه الشهيرتين.. كل مع أخيك ولا تأكل وحدك.. والله يرضى عليك ويهديك.

وعندما يسأله ولد ذكي أو فتاة صغيرة سؤالا غريبا، يرفع رأسه للسماء ويصمت قليلا كأنما ينتظر وحيا ثم يجيب إجابة مذهلة. حول كتاب أو قصة يحكها من كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة وبالذات حكايات هانز أندرسون العجائبية وخصوصا القداحة التي لم يمل الأطفال من سماعها رغم حفظ بعضهم لها، وتمسك طفلة في السابعة أصبعه، وتناديه باسمه العاري، رضوان.

- نعم يا فرحة.

- احك لنا القداحة.

ويختصر رضوان الحكاية، كان ياما كان، جندي وسيم وطويل، معه سيف جميل، يلبس بدلة عسكرية مهابة، يمشي في الغابة، وقابلته الساحرة العجوز، وطلبت منه خدمة : أريدك أن تدخل إلى جوف هذه الشجرة الكبيرة وتحضر لي شيئا من الداخل، ويستفسر الجندي، وتعطيه قميصا مطرزا كالصديري، وتشرح له: سوف تجد في أول غرفة كلبا، عيناه واسعتان كالفنجان، لا تخف منه أبدا، احمله وضعه

فـوق الصـديري، وسـتجد صـندوقا مليئـا بنقـود مـن النحـاس، ويمـلأ الجنـدي جيوبـه كلهـا، ويـدخل الغرفـة الثانيـة، ويجـد كلبـا يجلـس فـوق الصـندوق الثـاني، عينـاه واسـعتان كالصـحون، وينظـر إليـه الجنـدي بشـجاعة، ويـأمره بالهـدوء، ويحملـه ويضـعه فـوق الصـديري، ويفـتح الصـندوق، ويجـد نقـودا كثيـرة جـدا مـن الفضـة، فيفـرغ جيوبـه ويرمـي النقـود النحاسـية، وينتقـل للغرفـة الثالثـة، ويحمـل الكلـب الـذي تبـدو عينـه باتسـاع صـينية طعـام كبيـرة، ويفـتح الصـندوق، فيجـده مليئـا بـالنقود الذهبيـة، فيفـرغ جيوبـه مـن الفضـة، ويملأهـا بنقـود ذهبيـة، ويجـد القداحـة التـي تريـدها السـاحرة، ويخـرج مـن الشـجرة بعـد أن يجـذب الحبـل الممـدود إلـى يـد السـاحرة فـي الخـارج، وتسـاعده علـى الخـروج مـن جـوف الشـجرة، ويسـألها مـاذا سـتفعلين بهـذه القداحـة، وتـرفض أن تخبـره بسـرها، فيخـرج السـيف، وتمـوت السـاحرة، ويـذهب هـو إلـى المدينـة، ويصـبح ثريـا لـبعض الوقـت لكنـه يبـدد أموالـه بإسـراف، ثـم يسـمع عـن الأميرة الجميلة ويحبها قبل أن يراها ويفكر فيها.....

وهكـذا كـان رضـوان يصـنع لنفسـه حيـاة سـعيدة، رغـم أنـه تمنـى طـوال عمـره أن ينجـب فتـاة مثـل فرحـة، وولـدا مثـل كـريم، لكـن بعـد وفـاة "بدريـة"، زهـد النسـاء، وخفتـت جـذوة حبـه للبقـاء، فلـم يكـن يقـيم للمـوت مكانـا فـي خيالـه، ولا للحيـاة، يعـيش كمـا تحيـا العصـافير، كـل يـوم برزقـه، ولا يقلقـه الخـوف مـن الغـد، ولا تعنـي كلمـة المسـتقبل بالنسـبة إليـه سـوى درجـة مـن درجـات الماضـي السـحيق المتقـدم فـي الاتجـاه العكسـي، عكـس

اتجاه الشمس، حيث الزمن وسيع وتبدو حياة الإنسان على الأرض مهما طالت كمرور ساعتين ليس أكثر.

عندما سمع ضياء عواء الذئب، كان رضوان مستلقيا محموما ، في عشته، رغم إلحاح دكتورة إلهام لأخذه للمستشفى لخياطة جرح رأسه وتطهيره بعدما ضربه فرحات، واضطرت بمعاونة خطيبها لخياطة رأسه وإعطائه مضادا حيويا، وبقيا معه ساعة وتركاه، وظل سميح وأكرم بجواره حتى صلاة العشاء وانصرفا.

توهم رضوان أن أمه تقف جوار الباب وتنظر إليه بغضب، كان دائخا وفي حالة هلوسة، كأنه سمعها توبخه وتأمره بالثأر من فرحات: شج له رأسه كما شج رأسك.

لكنه كان يستسلم لمفعول الدواء وغشيه هدوء محبب فأغمض عينيه واسترخى.

-هل تأكدت أنه داخل العشة؟ سأل حسان علوان.

-نعم ..إنه نائم.

وبدأ الشابان في سكب السولار على أركان العشة من الجهات الثلاث، يأخذان جركن مملوءً من حقيبة السيارة ويفرغانه، حتى أغرقا الكوخ بالسولار تماما.

أخـرج حسـان دلـوا بـه حبـل طويـل مـن الكتـان مطمـور فـي السـولار، ربطـه فـي مقـبض بـاب الكـوخ ثـم أخـذ يفـرده علـى الأرض لمسـافة عشرين مترا.

تحـرك علـوان بالسـيارة حتـى بلـغ منعطـف الطريـق وأصـبحت السـيارة بعيـدة عـن مجـال الرؤيـا تحسـبا أن تظهـر بوضـوح لأي شـخص عنـدما تضيء نار الحريق، ظلمة الليل.

أخـرج حسـان الولاعـة وأشـعل طـرف الحبـل، وصـرخت النـار وركضـت فـوق الأرض كقـط مفـزوع، وأضـاء الحريـق ليـل أطـراف القريـة، وانطلـق الـرجلان بالسـيارة، وهـو يتحـدث بتشـف وشـماتة: يحكـي لعيـال القرية حكاية الولاعة، العيال بتموت فيه يا أخي، ده نسل شياطين.

وينظـر علـوان إليـه دون أن يعجبـه الكـلام، رغـم مشـاركته فـي الجريمـة، ربمـا بعـد دقـائق يـتفحم رضـوان، ويصـبح مجـرد ذكـرى باهتـة فـي أذهـان الناس، ثم بعد سنة أو عشرة سيطويه النسيان .

7

كان الذئب القتيل ممددا على الرمال وبجواره كبش جسيم بقرنين كبيرين مأكول من أحشائه وصدره وفخذيه وممزق الرقبة كأنه مذبوح.

وعلى مسافة مترين من دمه المسفوك على الرمل، عدة أحجار كبيرة مصفوفة فوق بقعة مستطيلة من الرمال تبدو كحفرة تم ردمها حديثا بدون شاهد مقبرة.

سلط البهنسي ضوء كشافه اليدوي على الحفرة وقال: لقد كان أحد الذئاب يحاول الحفر.

اقترب ضياء ونظر وشعر بغم وكز على أسنانه، وأخذ الكشاف وأقعى القرفصاء وتأمل حفر الذئب، ثم أعاد الرمل إلى الحفرة بحذائه.

وقف ضياء منزعجا واستغفر الله وقال للبهنسي: في الصباح الباكر أريد قبرا مبنيا بعرض مترين وطول أربعة أمتار وحوله سور بارتفاع متر، وعندما يجف الإسمنت أحضر عوض السباك والصق السقف والجدران ببلاط من السيراميك الأخضر.. عاجلا أو آجلا سيصل الخبر لوكيل النيابة ابن المرحومة.. ربما يخفف القبر المبني من صدمته وغضبه، عمي فرحات ارتكب جريمة ولا أريد أن تكبر هذه المشكلة أكبر مما هي عليه.

قال البهنسي: مش هنصطاد باقي الديابة يا عمدة؟

-يا أخي الله يهديك.. ألا يكفيك هذا المرحوم الذي قتلته ظلما؟

هرش البهنسي رأسه وقال: ما رضوان قتل ثلاثة يا عمدة، الكحكحة في يد اليتيم عجبة يا خال.

ضحك ضياء والرجال ونسى همه وأحزانه وشكر الله على وجود أشخاص لطفاء كالبهنسي يلونون وجه الحياة بالضحكات والمرح وطلب منهم دفن الجثتين.

حفر الرجال حفرة وأسقطوا الكبش والذئب ثم ردموها وركبوا السيارة.

أدار البهنسي المفتاح ثم انطلق عائدا.

في منتصف الطريق للقرية، رأى نارا بعيدة تتوهج في العتمة.

شهق وقال : حريق!

وضع العمدة ضياء المنظار المعظم على عينيه، وقال :لطفك يا رب، الحريق أمام الجامع. . هذه عشة رضوان.

فكر في الوقت الذي ستقطعه سيارات المطافئ من مركز المدينة لأطراف القرية، فكر في الدقائق التي تفصله عن مكان العشة، أخرج

هاتفه وأراد الاتصال بعمه فرحات، لمع في ذهنه خاطر، لم يفعلها سواه.. لعنه الله. و أمر البهنسي بالإسراع ثم اتصل بالشيخ زكريا.

وصل ضياء لمكان الحريق بعد أن اتصل بزكريا وبعض رجاله ومعارفه والمطافئ.

كانت خراطيم المياه ممدودة من المسجد حتى كوخ رضوان، والعشرات من أهالي القرية يملؤون الدلاء والأواني من الترعة ويحاولون إطفاء الحريق.

وصلت المطافئ خلال ربع ساعة من اتصال ضياء، كان الحريق قد أخمد تماما، رغم ذلك فتحت سيارات المطافئ خراطيم المياه وأغرقت المكان تماما وأطفأت الحريق المطفأ.

لم يبق من عشة رضوان إلا ألواح الصاج والرماد.

ثم وصلت سيارة الشرطة والنيابة.

بحث ضياء وزكريا والبهنسي بين الأخشاب المحترقة لكن لا أثر لأي جثة بالمكان.

فتح الضابط محضرا وبدأت المعاينة على أضواء السيارات والكشافات النيون. تتبع مخبر المركز خط النار الذي صنعه الحبل المحترق والضابط ووكيل النيابة يتتبعانه، قال الوكيل: هذه جريمة وليست حادثا.

ثم عادا للكوخ المحترق وأخذا عينات للمعمل الجنائي.

ودارت الأسئلة المكررة.....

كان رضوان يراقب ويسمع كل شيء، كامنا بين أعواد الذرة الشامية على الضفة الثانية من الترعة، لقد أدرك لأول مرة في عمره أن حياته تتقاطع مع حياة فرحات وابنيه، وأنه لم يعد يمكنه البقاء في القرية إلا بعد هلاكهم، لكنه لم يفكر للحظة واحدة في قتلهم رغم أنه يستطيع أن يفعل ذلك ، ما أسهله بالنسبة إليه إذا أراده الآن.. قتل ثلاثة رجال.. ما أسهل ذلك..! المقلاع الصغير قادر على اختراق جمجمة ذئب، يمكنه أن يذهب الآن إلى بيت فرحات، ويكمن لهم في الظلام أمام مدخل الفيلا، ينتظر الرجال الثلاثة، يسقط حسان بحصاة في جبهته، تماما كما قتل داود جالوت، وفي لحظة ذهول علوان وانحنائه ليتفقد أخاه، يصوب إلى رأسه حجرا آخر، ثم يتقدم ببطء وثبات، ويخلع رقبة فرحات من كتفيه بسهولة ويسر، كما قتل ذئبا من قبل، لكنه لم يقرر ذلك، رفع رأسه للسماء المعتمة وانتظر الإجابة وذاب بين أعواد الغاب كالشمعة التي تحترق وانطلق ناحية الجبل، وهو يتذكر كيف عض وخنق ثلاثة ذئاب وقتلهم دفعة واحدة منذ عشر سنين في نفس المكان الذي سيذهب ليبيت فيه ويختفي حتى يأتي الفرج، تحسس إليته اليسرى، وتذكر الذئب الشجاع الذي نهشه وقضم قطعة من لحمه وهو يصارع الذئبين الآخرين، وصرخة رضوان الهائلة والدم وحالة الصرع التي أصابته فمزق الذئب بأسنانه الآدمية بعدما عصر رقبته

بيديه وحطم عظام حلقه كالبسكويت، وقتل الذئبين الشابين بالرفس القوي في القلب تماما، كأن قدم رضوان هدامة حديدية ضخمة لتدمير المنازل القديمة، كان في تلك اللحظة في قمة غضبه، وقبل خروجه من أرض الذرة احتك بالعيدان بلطف، فصدرت خشخشة واهنة لم تلفت انتباه أحد، رقبة واحدة فقط بين الحشد المتجمع عند الحريق التفتت واتسعت عينان وولدت ابتسامة تم إخفاؤها بذكاء وصمت.. كان ذلك وجه حسن الصواف.

8

كان العجوز فرحات يسب ويشتم لأن ابنيه أحرقا العشة ولم يتخلصا من رضوان، قال لهما: أنتما خائبان.. ضاعت تربيتي لكما هباء، لعله عرف أنكما من فعلها، وربما ترصدنا وقتلنا واحدا بعد الآخر، رضوان قتل حية بحجر، وذئبا بحجر، وأسقط صقرا أمام عيني بحجر، ذراعه أشبه ما يكون بمدفع جالن.

قال حسان: جالن وإلا كانن، إنه بسبعة أرواح كالقطط، سقط من نخلة عالية ولم يمت، حاصرته الذئاب فقتل ثلاثة منها، ولا نعرف كيف نجا من الحريق.

رد علوان: لابد أنه قفز من الشباك إلى الترعة، لكن اطمئن يا حاج لم يرنا أحد ولا حتى هو.

-اطمئن يا حاج! قالها فرحات ساخرا، ثم أضاف: رضوان يرى ويسمع ويحس ويشم بقوة كذئب، أقطع ذراعي إن لم يكن تشمم عرقكما وعرفا أنكما خارج العشة تجهزان لإحراقه، مع أول قطرة سولار ستصل رائحتها إلى أنفه.

قال حسان: لا أظن أنه سيعود للقرية بعد ما حدث، هو مسكين ولا يحب الشر ولن يعود.

-مسكين! رضوان وحش حقيقي وقاتل، لا يخدعك مظهره الطيب ودروشته وحبه للأطفال والقصص والعصافير والكتب والناي الذي لا يفارق شفتيه، إنه من نسل شيطاني، أنتما لا تعرفان من أبوه، وضرب فرحات صدره بقبضته وقال : أنا أعرف ما الذي يمكن أن يفعله وحش كهذا من صلب سفاح أخاف القرى والمدن، سنوات طويلة.

ارتبك حسان وأخوه ودب في قلبيهما خوف جديد، وبدأ يتشكل في خيالهما رضوان آخر غير الدرويش المسكين الذي يقضي حياته بين المسجد والأشجار والعصافير، وقال علوان: من ؟! من أبوه يا حاج.

-لن أخبركما لأنني أعرف أنكما جبانان ولو عرفتما حقيقة رضوان لن تظلا في القرية، ورحمة أبي إنكما لن تبيتا في فراشيكما، وسحب فرحات نفسا طويلا من شيشة التمباك المنزلية ثم ظل يكح بقوة ويطرد بلغما.

قال علوان: نأخذ بعض رجالنا ونبحث عنه في الجبل ونقتله وندفنه هناك.

ضحك فرحات ضحكة ساخرة مستهترة وقال: يقال في الأمثال القديمة يا ولدي لا ترسل مجموعة خراف لقتل ذئب، حتى لو تسلح كل رجل منكم بكلاشينكوف سيقتلكم كلكم، رضوان كالطيف، كالشبح، أنت وأخوك ورجالي سيصطادكم كالغربان.

قال حسان: وما العمل يا حاج؟! هل ننتظر حتى يأتي هو ويقتلنا.

-الطريقة الوحيدة لقتله هي السم، والشخص الوحيد الذي يبحث عنه ويطعمه ويرعاه هو حسن الصواف، ورضوان يثق به وحده. هل فهمتهما؟!

قال علوان: السم! وما رأيك يا حاج في بندقية ضياء؟

ضحك فرحات وقال: من الممكن أن تنجح المحاولة ومن الممكن أن تفشل، وإذا فشلت سيقتلنا جميعا، لن يرحمنا هذا المجنون ابن الشياطين.

قال حسان: أوجعت قلبنا وأرعبتنا يا حاج ماذا نفعل الآن؟

-حسن الصواف سيذهب إليه في الجبل ليعطيه الأكل والماء وليطمئن عليه، راقبا ما يجري وسننتظر فرصتنا، حتى الآن لا أحد يعرف أننا حاولنا إحراقه، اذهبا وناما والصباح رباح.

خرج الشابان من صالة البيت الواسعة وصعدا السلم الداخلي لفيلا أبيهم ودخل كل واحد منهما لزوجته وهو غارق في أفكار مخيفة عن هذا الوحش الشيطاني الماكث على بعد عدة كيلو مترات من بيتهم، ثم اشتعل سؤال واحد في رأسيهما فجأة: من هو والد رضوان الجبل؟!

9

في الصباح قام البهنسي ومساعدوه بتحميل الطوب الأحمر والإسمنت والرمل والحديد ومعدات الحفر، ارتدوا الكمامات كما أمرهم ضياء، وحول الحفرة المغطاة بالأحجار رسم البهنسي مستطيلا بالجير الأبيض، بعرض مترين في أربعة، وبدأ الرجال الحفر بعرض ربع

متـر وعمـق متـر، ثـم خلطـوا الرمـل بالإسـمنت والـزلط والمـاء وجهـزوا الخلطـة وصـبوها فـي الحفـر المسـتطيل وأقـاموا رؤوس أربعـة أعمـدة مـن قضـبان الحديـد وتركـوا الإسـمنت محاطـا بسـياج خشـبي يرتفـع لعشـرين سنتميتر حتى يتصلب.

أفطـر الرجـال وشـربوا وظلـوا حـول البنـاء لقرابـة الظهـر، ثـم قـاموا بـرص الطـوب الأحمـر حـول الإسـمنت المصـبوب مـن جميـع الجهـات ثـم انطلقوا عائدين للقرية.

كـان رضـوان يشـاهد ويسـمع كـل كلمـة، وكـان سـعيدا لهـذا العمـل الطيـب، وأحس بمحبة جديدة داخل قلبه تجاه العمدة ضياء.

فـي الطريـق النائيـة التقـى البهنسـي بحسـن الصـواف يتجـه ناحيـة جبـل القرية، وقفت السيارتان ووقفت سيارة حسن.

-إلى أين يا حاج حسن.

-أبحث عن رضوان يا بهنسي.

-كنـا عنـد الجبـل فـي تـل العبايـدة نبنـي قبـرا للمرحومـة عليـاء، الله يرحمها، لكن لم نره.

-البقـاء لله، الله يسـامح مـن كـان سـببا فـي كـل ذلـك، قبـر مـوحش وحيـد فـي العـراء، ومسـكين خـائف ينـام علـى الحجـر فـي الطـل والنـدى، لله الأمر.

-هل تريد أي مساعدة يا حاج حسن؟ هل تحب أن نرجع معك لنبحث عنه؟

-شكرا لك يا بهنسي، أبلغ سلامي للعمدة.

انطلق حسن وعندما اقترب من التل والجبل شعر برهبة وخوف، المكان موحش وهادئ ومخيف، جبل صخري برتقالي صغير بارتفاع سبعين مترا، وتلا ممتدا يرتفع لسبعة أمتار، وصحراء رملية مقفرة لا نخيل بها ولا أشجار، فقط نبات الصبار يتناثر هنا وهناك وبعض أشجار قليلة قصيرة تسكنها الأفاعي والعقارب، وخيام بعيدة لبدو رحل، لاحظ حسن الطوب المصفوف حول البناء الناشئ والأحجار فوق القبر وحوله، فتوقف وقرأ الفاتحة على روح الدكتورة علياء وهو داخل السيارة.

كان زجاج النوافذ محكم الغلق إلا نافذة باب السائق مفتوحة للثلث، والأبواب الأربعة مؤمنة الغلق، ، حسن يعرف أن عددا من الذئاب الرمادية تسكن في هذه المنطقة وأن أكثر من عشرين كيلو مترا من الأحراش والصحراء تفصل قرية النخيل عن قرية الزهراء في المحافظة المجاورة.

أنهى الفاتحة وفتح عينيه ونظر يمينا وشمالا وناحية الجبل، لكن لم يظهر رضوان، أطلق آلة التنبيه مرة بعد مرة بصوت مرتفع ومزعج ولم يظهر أحد، ضغط آلة التنبيه بشكل مستمر فنعق صوتها نعيقا

مزعجا جدا، وعندما يئس توقف عن استخدامها، قال لنفسه : لا يسمع لكلامي أبدا، رجوته ألف مرة أن يحمل هاتفا محمولا، رحمتك يا رب.

عندها سمع صوت الناي.

فتح حسن الباب ونزل، دار حول السيارة فوجد رضوان يجلس مستندا على عجلة السيارة الخلفية من الجهة اليمنى في الظل.

جلس جواره لكنه لم يقطع العزف، وعندما انتهى تعانقا وقال له حسن: الحمد لله الذي أنجاك.

-إيه يا حسن ولو كنتم في بروج مشيدة، بقي لي في الحياة عمر ورزق.

نهض الصواف وفتح حقيبة السيارة وأخرج أكياس الطعام والفاكهة وزجاجات ماء كثيرة، ثم فرش ملاءة على الأرض وأكل الصديقان دجاجا مشويا على الفحم وخبزا وطحينة بيضاء وخيارا مملحا ولفتا.

لم يشأ حسن أن يفسد شهية رضوان للطعام لأنه يعرف أنه نام بلا عشاء، فلم يتحدث عن الحريق.

حمد رضوان الله، وصب الصواف على يديه الماء فاغتسل، واغتسل حسن وجلسا.

قال رضوان: نصف نعيم الدنيا في لقمة هانئة كهذه! أتعرف ما النصف الثاني يا حسن؟

-امرأة جميلة طيبة عذبة اللسان وتصون العشرة يا صاحبي.

-لا يا أخي.. النصف الثاني كوب شاي مضبوط.

وضحك الرجلان بفرح.. نهض حسن وأخرج من حقيبة السيارة برادا من الاستانلس ستيل بمقبض لليد من العظم، وكيس سكر وباكو شاي وكوبين زجاجين وملعقة.

هلل رضوان فرحا وقال: الله يرضي عليك ويرحم والديك.

ونهض فأحضر ثلاثة أسياخ قصيرة من الحديد و ثمانية قوالب طوب أحمر ووضعها على الأرض كدائرة مضلعة، أربعة فوق أربعة، ثم كسر عدة عيدان من أغصان شجر اللبان الصحراوي وأشعل النار تحت البراد وأخذ الماء يغلي.

بعد الشاي الثاني قال رضوان: فرحات أرسل حسان وعلوان لإحراقي.

-هل رأيتهما؟

-لا. كان الظلام تاما ونور العامود الوحيد أمام الجامع كان بعيدا، جاءني هاتف في رأسي، أبلغني بما يفعلان، ألصقت خدي بجدار

العشة، شممت رائحتهما، أتعرف يا حسن رائحة علوان تشبه رائحة ذكر الماعز المالطي الهائج.

ضحك حسن واندفع الشاي من فمه لصدره وبلل نفسه وسكب الشاي على حجر بنطاله وسعل بقوة وظل رضوان يضرب ظهره برفق.

-يلعن شيطانك يا جدع.. كدت أموت.

ودار كلام كثير بين الصديقين، وحاول حسن إقناع صديقه أن يقبل أن يشتري له بيتا مستقلا في قرية الزهراء المجاورة وأن المسافة من هنا لهناك أقل من ساعة، بدلا من البقاء في الجبل في البرد والطل والوحدة الخانقة.

رفع رضوان وجهه وبكى ثم عانق حسنا بقوة وفي لحظة صفاء ومحبة قال متعجبا : لماذا تفعل كل ذلك معي؟!

-أنت أخي يا رضوان.

-أعرف يا حسن أننا كلنا أخوة في الله وأمثال فرحات ونسله شياطين إنس.

-أنت أخي ، رحم الله أمك ريحانة، عاشت كادحة راضية، تعجن العجين وتخبز الخبيز، وأرغفتها كانت أحب أنواع الخبز لأهل القرية، رغم أن لكل بيت فرن طابون خاص به، كان الجميع يتهافت على خبزها، وكانت تصنع أرغفة مخلوطة باللبن والسمن البلدي، يمكنك

أن تأكل منها ثلاثين دون أن تشعر إلا وصدرك لا يجد مساحة عقلة أصبع للتنفس من ضغط امتلاء معدتك على رئتيك.

أمي كانت تحبها، وكانتا صديقتين وأختين، ورغم أنني كنت أتشاجر معك ونحن أطفال صغار وأضربك، لم تضربني أبدا، وكنت أنا بطولي وعرضي بحجم ساقك، لو أنك أحببت أن تحطمني كرمانة ناضجة لفعلت، وماتت الطيبة وانقطع الخبز، وكانت أمي ترسلني لأبحث عنك لتأكل معنا، وأنت تحن لهذا المكان الموحش، ولا أجرؤ أن آتي إليك هنا وحدي، وعزة نفسك كانت تخنقني منك وتمنيت أن أصفعك مرات كثيرة، لكني لم أكن مجنونا لأفعل ذلك، كنت أحبك وأخافك.

-وأبي يا حسن، أنا لا أتذكر أغلب الحكايات والأحداث التي تذكرها أنت.

-أبوك سامحه الله، كان اسمه الأول حامد، وكان أبوه رجلا طيبا صيادا اسمه عبد الجواد، ولما ظهرت علامات الشراسة والعنف على حامد أبيك، وصار يأتي إلى هذا المكان ويبيت فيه ويختبئ أيضا، ويرشد تجار السلاح والمخدرات على الطرق الجبلية بين الرمال الناعمة التي تبتلع الناس والخيول، ويحصل على أجر ممتاز منهم، ويساعدهم في العثور على مقابر التماثيل، اشتهر باسم عارف الجبل، لكنه ورط نفسه في جرائم قتل، وطاردته الشرطة، وظل يهرب من

مكـان لمكـان، ومـرت سـنوات طويلـة لا أحـد يعـرف أيـن هـو، هـل مـات، هل سجنوه، لا نعرف.

-هل كان يحب أمي، وكم بقي معها.

-لا أعرف إجابـة هذا السؤال، لكنـه لـم يبـق مـع أمـك فـي العشـة أكثـر مـن أسـبوعين، وقتـل القتيـل الأول، قتـل مخبـرا مـن قـوة مركـز القريـة، ووقعت جرائم قتل وسرقة نسبوها إليه كلها.

-من الذين نسبوها؟

-الشـرطة، النـاس، لا أحـد ينشـغل بنفسـه فـي هـذا العـالم، الجميـع مشـغول بغيره، بنجاحه، بثرائه، بفرحه، بحزنه، بفشله، بحذائه الجديد.

-هههههههه، الله يرضى عليك ويرحم والديك يا حسن.

-أنـت أخـي.. قالهـا حسـن ونهـض. خـذ لقـد أحضـرت لـك كـل شـيء يمكـن أن تحتاجـه هنـا، بعـد غـد سـيكون بيتـك الجديـد جـاهزا وسـأنقلك لهنـاك إن شاء الله حتى يحلها رب الناس.

حمـل رضـوان الأكيـاس وأخـذ قوالـب الطـوب وأسـياخ الحديـد وصـعد للجبـل، أشـار بيـده مـن أمـام فتحـة المغـارة الصـغيرة لحسـن مودعـا وانطلق الصواف راجعا وغاب الدرويش في النور والظلمة.

نصب القوالب الثمانية وفوقها أسياخ الحديد، ثم نهض وأسرع الخطى ليجلب الحطب الكافي للتدفئة وعمل الشاي.

رأى غبارا كثيفا، وهو ينزع الأغصان الغليظة من شجر اللبان الصحراوي، نظر بتركيز شديد، كان قطيع كبير من الخراف يشق الأرض من الشرق إلى ناحية الغرب عند حافة الجبل، يتقدمه جسد خفيف الحركة ونشيط غائب في ثياب سوداء، توقف السواد، وتجمد رضوان بطوله الفارع وجلبابه الأبيض، وتبادل اللونان الحيان نظرات طيفية كغبار الأرض للحظات وجاءت العينان في العينين، ثم ابتسما، ثم اجتاز السواد الطريق الترابي الواسع وغاب وراء حافة الجبل.

أراد أن يلحق بالبدوية السمراء الممشوقة، بدا له وسطها الضيق كعقدة في حبل سفينة، ثلثها العلوي قصير، والثلثان السفليان طويلان، صدرها كمقدمة دبابة، هكذا أحسها، وتجر خلفها، ..... وعض على شفتيه وتذكر عنترة العبسي(هيفاء القوام كأنها فلك مشرّعةُ على الأمواج) وغلبه توتر هائل، لكنه تراجع عن تنفيذ رغبته الملحة التي لم يعشها قبلا في اللحاق بها.

صعد للمغارة ونسى الشاي، نسي أكثر الأشياء التي يحبها في العالم، نسي نصف الدنيا و"بدرية" الراحلة، ورغبته في الثأر من فرحات وابنيه، وانشغل بهيفاء القوام، ذات الجلباب الأسود. ورقص واهتز كالمجانين وبحث عن الناي، وغلبته حالة فرح عارمة، وهتف الهاتف

فـي رأسـه، سـتكون لـك، فعصـر الهـواء بـين قبضـتيه، ثـم رجهمـا رجـا أمـام صـــدره، ودار ودار وفـــرد ذراعيـــه، ورقـــص رقصـــة الموالـــد الشـــهيرة، بدون طربوش طويل، وترنم ويحرف الشعر كالعادة:

)قل للمليحة في الرداء الأسود.. ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان ينوي للقتال قيامه.. لما اهتززت له كنار الموقد*(

وأعـاد رضـوان ترتيـب جميـع أولوياتـه داخـل ذهنـه، إنـه الآن فـي هـذه اللحظـــة القصـــيرة مـــن عمـــر الحيـــاة، يريـــد شـــيئا واحـــدا، أن يشـــبح هـــذه البدوية على صليب العشق حتى ولو ماتا معا...

*بيتان شهيران

10

مايسة أخت ماجد ظلت تطلب منه أن يصحبها لزيارة قبر أمهم، ووعدها بذلك.

لكنها تشككت أنه يراوغ، فضغطت عليه واستفزته بكلمات جارحة، كأنه عدو لها، وأسمعته كلمات قاسية، أنت فرحت لوفاة أمنا، أنت ألقيت بها في أرض الفلاحين ليهينوا جثتها بعد وفاتها، أنت لم تحب أمنا أبدا، أنت أناني وحاقد، لا يهمك سوى وظيفتك وسمعتك وبرستيجك.

أحس ماجد بمرارة أقسى من كل الأزمات والتحديات التي عاشها في حياته الشابة، ووجد بفطنته أن أي محاولة للنقاش أو الكلام مع أخته هي حماقة وغباء، فالبعض يزرعون في أذهانهم أفكارا وقناعات يؤمنون بها فلا يمكن لأحد أبدا أن يزحزحها من مكانها، وحدث نفسه وعلى وجهه أسى رهيف، عندما تتصادم مع الآخرين، احترس من الحمقى، فإنهم يرتدون دائما عقولا ناسفة، وتوهم أنها قرأت أفكاره فارتجف، أمسك هاتفه المحمول أمام عينيها واتصل بالعمدة وأخبره عن نيته لزيارة القبر يوم الجمعة.

هي أخته الكبرى، ولديها الكثير من الضغوط النفسية والعصبية، والأحلام المحطمة، لم يرد أن يرد عليها ليجرحها أو يكسر خاطرها، تحمل السم في كلماتها إكراما لروح أبيه وروح أمه، رغم أنه في

بعض الأحيان تحت هدير كلماتها القاسية كنصل السكين، ينفجر في وجهها، ويتخلى عن وقاره وأدبه، ويسبها دون أن يحس بنفسه، وأحيانا يحطم كوبا أو فنجانا أو قطعة زجاج لا ذنب لها على عارضة الباب، كي لا يفجر غضبه تجاه جسدها الضعيف أو وجهها الجميل ، ويتعجب من قدرة لسانها الذي يفرز كل هذه الكلمات السامة، ويقول لنفسه، ما أجمل منظر الأفاعي والحيات، أعطاها الله سحرا وغموضا ونعومة وانسيابية، لتحمل الموت في طريقها لكثير من الكائنات المسالمة.

ضياء بعد تلقيه للمكالمة، أحس بقلق. وأكد لماجد أنه سيكون سعيدا باستضافتهم عند حضورهم، وقدم واجب العزاء مرة أخرى بمحبة ورقة وكرر أسفه عما جرى يوم الدفن. وضع الهاتف في جيبه ثم خرج لشرفة المندرة وسأل البهنسي ماذا فعلت؟

-كله تمام يا جناب العمدة.

-كله تمام هذه، تجعل الفئران تسبح في عبي يا بهنسي ، وتذكرني بالنكسة.

-اطمئن يا جناب العمدة، حفرنا ووضعنا الأساس والأعمدة وغدا نبني القبر وبعد ثلاثة أيام نبني السقف وبعد أسبوع نلصق السيراميك. على فكرة جنابك ، التقينا حسن الصواف في طريقه للجبل للبحث عن رضوان الأهبل.

-هل رأيتم رضوان ؟

-لا يا عمدة.

-لا تتكاسل عن إنجاز القبر وسوف أجيء لأراه بعدما يتم بناؤه، أولاد المرحومة سيحضرون الجمعة لزيارة قبرها، أتمنى ألا يصل الخبر إليهم. مفهوم!

-وأنا مالي يا عمدة أنا لا أقول ولا أعيد.

-الكلام للكل.. لا نريد مشاكل جديدة.. وجلس ضياء ليشرب الشاي.

هناك في مغارة الجبل، بسط رضوان البطانية السميكة التي أخذها من حسن على الأرض، وضع الوسادة الصغيرة تحت رأسه، تمدد وبدأ النوم يخدر جسمه ببطء.

مرت ساعات وأصبح الجو باردا، يقلقه البرد قليلا أما القلق الكبير فكان من نصيب صاحبة الجلباب الأسود.

وضع يديه على بطنه، ووجهه تجاه سقف المغارة والنعاس يسقط عن جفنيه ثم يصعد من جديد.

غزت رائحة قوية أنفه، رائحة آدمية نافرة ومؤنثة، تختلط ب رائحة لبن ماعز، ودخان حطب محترق. تذكر مكتبته التي احترقت في العشة، تذكر كاتبه المفضل كازنتزاكيس، وكلمة فتاة تتفجر بالأنوثة (

مـا أطيـب رائحتـه) فـتح عينيـه كثقبـي إبـرتين، كانـت تقـف أمـام قدميـه الممددتين، تتأمل طوله الفارع وبنيانه القوي ووسامة وجهه الطفولي.

كانـت بدويـة سـمراء شـابة تبـدو فـي ثوبهـا الأسـود المزخـرف بالتمـائم والعقـود المعلقـة علـى صـدرها كمهـرة عربيـة أصـيلة مميـزة الأنـف والعينين.

تأمـل وجههـا وعينيهـا و شـفتيها والأوشـام الخضـراء المنقطـة علـى ذقنهـا، بشـرة وجههـا برونزيـة، الجلبـاب الواسـع ضـيق عنـد الوسـط و يخفـي (فلكا مشرعة على الأمواج.(

فـتح عينيـه قلـيلا وابتسـم وكانـت هـي مندهشـة للمصـباح النيـون المضـيء بدون نار ولا كهرباء! كأنها جاءت للتو من عهد الهكسوس.

- تشربي شاي!

- سأعمله لك.

- عندي أكل ممتاز.. اقعدي..

قعدت تصنع الشاي. أكلا وتكلما وتضاحكا وتعارفا.

هـي فـي السـابعة عشـرة، لـم تـدخل مدرسـة، لكنهـا تفـك الخـط وتحفـظ بعـض السـور وأبيـات الشـعر والمواويـل ، حياتهـا الترحـال والخيـام والأغنـام وعمهـا سـاطع، اسـمها خولـة، يتيمـة، تعـيش بعمـل يـدها كراعيـة غـنم وحالبـة لـبن وجـزازة صـوف أغنـام، لـم تتـزوج بعـد رغـم كثـرة

خطابها، لا يريد عمها تزويجها الآن لأنه سيفقد خدماتها وليس لديه أبناء ذكور، تنهدت وقالت: لو كان يستطيع أن يأخذني لنفسه لأخذني ومالت برأسها للوراء وهي تضحك في جلستها.

أحس رضوان أن الدنيا التي تغني وتبكي وتحترق تضحك أيضا، وتحركت مشاعر لم يجربها منذ سنين طويلة بداخله، ودون تفكير ضمها.. وغلي الماء في البراد وارتفع الغطاء وتطاير الرذاذ الساخن وشهقت النار.

-ابقي معي.

-يذبحني عمي. قل لي: ماذا ستفعل معي؟!

-بعد غد ستصبحين امرأتي وتعيشين معي في بيت جديد.. هناك في الزهراء.

-سأهرب معك.. عمي لن يقبل بزواجنا.

-اهربي معي الآن.. وعوى الذئب.

نهضت خولة لتنصرف ونهض ليصحبها، لكنها قالت له: ابق هنا كي لا يرانا أحد من عشيرتي ويفسد كل شيء.

قال في قلق وحنان: أخاف عليك الليل والذئاب يا خولة.

ضـحكت وقالـت : لا يوجـد فـي الجبـل كلـه ذئـاب غيـرك يـا حبيبـي.. وانطلقت نازلة.

استوقفها

- متى سأراك؟

- سـأجيئ إليـك.. وعنـدما يصـبح كـل شـيء جـاهزا سـأرحل معـك إلـى الزهراء.

تركهـا تنصـرف، أحـس انهـا أخـذت قلبـه تحـت إبطهـا وهـي تنطلـق، رنـت كلمتهـا فـي أعماقـه " يـا حبيبـي " ، تنهـد وقـال : بعـد سـاعة واحـدة تحـت لهيـب الغـرام تخبرنـي فتـاة لـم ترنـي مـن قبـل أننـي حبيبهـا، وضـحك : يـا لحماقة المرأة، وبلاهة الرجل.

11

فـي الصـباح كـان البهنسـي ورجالـه يبنـون القبـر، وعنـد الظهيـرة جـاء حسن لرضوان.

نظـر حسـن فـي وجهـه وقـال لـه متعجبـا: شـيء مـا غـاب عـن وجهـك وأشياء جديدة حلت مكانها.

رد رضوان بمكر وابتسامة حزينة وقال لم أفهمك.

-أنت تفهم أكثر مني ومن غيري، أنت مكتبة حية وحدك، هيا أخبرني.. مالك تبدو كنجم يضيء السماء؟!ماذا حدث بالأمس؟

-لقد جاءت.. سنتزوج.

شهق حسن وصرخ من الفرح ..الله.. الله.. أخيرا أيها الشيطان وجدت شيئا أهم من الشاي الساخن وضحك وقال: ها احك لي.

وحكى له رضوان ما جرى.

قال حسن: يمكنني أن أخطبها لك وآخذ العمدة معي.

-لا. لا تحاول.. عمها بدوي شرير قاسي القلب.. أنت تريد فيلم الكروان من جديد وتضيع هنادي للأبد.

ضحك حسن وسأله: اسمها هنادي كبطلة طه حسين؟

-لا. اسمها خولة.. شابة صغيرة بكر.. كانت!

-سامحك الله يا رضوان أنت الطاهر النقي القوام الذي لا يفارق المسجد لم تحتمل الصبر ثلاثة أيام.

-والله يا صواف ما كان هذا الجبل ليحتمل ضحكتها واهتزاز صدرها وميلان رأسها للوراء ولا دقيقة واحدة.. تذكرت "بدرية" فقلت لنفسي لن أكرر خطيئة الصبر مرة أخرى.. ليغفر الله لي.. سأتزوجها.

-ألف مبروك يا حبيب. أتمنى أن تتم الأمور على خير ولا يؤذيك عمها الشرير.. أخشى أن تقتله في ثورة غضبك.. أنت لا تعرف أي وحش رهيب تتحول إليه عندما تغضب.

-ظننتك تخشى أن يقتلني هو.

-الله يحرسك. خذ أحضرت لك حماما وبطة، ألح علي خاطر قوي أن أطبخ لك بطة وحماما.. صباحية مباركة يا عريس.

انصرف حسن، وظل رضوان ينتظر أن تأتي خولة لتأكل معه، ولما غلبه الجوع أكل خبزا وجبنة وشرب شاي وأبقى البطة والحمامتين حتى تأتي خولة وقتما تجيء ونام كالعادة نهارا.. لكنه اكتشف أن النوم صار بعيدا جدا كالشمس في السماء.. وعميقا وغائرا كقعر البحر الواسع. فظل يتقلب ويتقلب.

***

بعد صلاة العصر استقبل الحاج فرحات اتصالا من ابنته الطبيبة رغدا التي تعيش مع زوجها في مركز المدينة. كانت تبكي وتستغيث بأبيها وحولها أصوات مرتفعة وضوضاء.

استفسر الأب من الابنة وارتفع صوته.. وهرع حسان وعلوان وكل سكان البيت إلى الصالة ووقفوا ينصتون.

قال فرحات غاضبا: سآتي إليك حالا.

-ماذا حدث يا حاج؟

-جيران أختكم يريدون طردها من العمارة السكنية بحجة أنها تشرف على المحتجزين المصابين بوباء كورونا في المستشفى يا حسان.

-هل وصلت الأمور لهذا الحد.. هذا إجرام.

نظر فرحات لأبنائه.. كان غاضبا جدا والنار تتنفس في مسام جلده، وصوته كفحيح أفعى ظامئة في الصحراء، تعالا معي.

واصطحب فرحات ابنيه ثم مر على العمدة ضياء، وتكدس الخفر والرجال في سيارات الميكروباص والسيارات الملاكي وبدا الموكب كحفل زفاف وانطلقوا تجاه المدينة.

اتصل ضياء برئيس مباحث المدينة، وأمام العمارة وصل الرجال ووصلت الشرطة.

أمـام الشـر والكثـرة وقـوة العـزوة والسـلطة وحضـور الشـرطة.. انكمـش الجيــران الغاضــبون مــن وجــود الطبيبــة بيــنهم، رغــم أن أغلــبهم شخصـيات مرموقـة فـي وظـائف مهمـة، لكـن النـاس بطبيعـتهم يسـتطيعون ادعاء أي شيء ، الشرف والكرم والموهبة إلا الشجاعة.

ووقـف فرحـات فـي البهـو علـى دوران السـلم أمـام بـاب المصـعد وردح ردحـا.. ونفـخ نـارا وهـدد كـل سـكان العمـارة أن يهـدمها علـى أدمغـتهم لـو تـم طـرد ابنتـه مـن شـقتها.. ثـم صـرخ بقـوة وغضـب: لقـد دفعـت ثلاثـة ملايــين ثمنــا لهــذه الشــقة وبربــع هــذا المبلــغ .....!ولطــم كفيــه ببعضهما. وفهم السكان التهديد.

أخـذ بعضـهم يتحـدث عـن المـوت.. وأن مخالطـة الطبيبـة للمرضـى يمكـن أن تصـيبهم بالعـدوى وبالتـالي ينتقـل الوبـاء لكـل السـكان وأهـل المنطقـة ثم المدينة.

تـذكر فرحـات كلماتـه أمـام قبـر الـدكتورة عليـاء، ورأى هـذه الشـماتة فـي عينـي الضـابط، ولمـح بريقـا منهـا فـي عينـي ضـياء، ورغـم مـرارة اللحظـة وبكاء ابنته وانهيارها ورعب أطفالها، لم يشعر فرحات بأي ندم.

انتهـت الأزمـة بقـوة الـبطش الخفـي واستسـلم الجيـران لهـذا الوضـع الـذي اعتبروه بلاء كبيرا يهدد حياتهم بطريقة ما.

فـي طريـق عـودة فرحـات والرجـال وجـدوا معركـة فـي موقـف الباصـات، ولمـا توقفـوا ليفهمـوا السـبب، عرفـوا أن ركـاب أحـد الباصـات اعترضـوا

علـى ركـوب ممرضـة معهـم تعمـل فـي المستشـفى التـي تـم تحويلهـا لمقـر للحجـر الصـحي، وأن السـائق تعـارك مـع الركـاب لأجـل الممرضـة، وكبـرت المعركـة واشـتبك عـدد مـن السـائقين مـع رجـال ونسـاء وجـاءت الشرطة.

عـاد فرحـات مغتمـا حزينـا لمنزلـه، وعـاد ضـياء مندهشـا ومتعجبـا لتصـاريف القـدر وحكمـة الله. بينمـا ظـل الخفـراء يتغـامزون ويسـخرون مـن جنـون العظمـة لـدى فرحـات، قـال البهنسـي: الله يـرحم أبـوه.. كـان يبيـع اللـبن حافيـا علـى حمـار، ودخلـت أرضـهم زمـام العمـران وجـاءت الملايين وصاروا أسياد القرية.

رد ضـياء مـن داخـل الـدار بصـوت غاضـب: اكـتم يـا بهنسـي جاءتـك غرقة.

-صـحيح يـا أولاد.. الحيطـان لهـا آذان. ونهـض البهنسـي ليتمشـى فـي البستان.

12

أخبرت نيرة، ابنة ضياء، أمها أن صديقتها حنين ستأتي لقضاء يوم معها. ودخلت الأم لزوجها العمدة مكتبه وأخبرته.

رفع وجهه غاضبا، وقال لها : ألم أخبرك يا مروة أنني لست مرتاحا لهذه الفتاة؟ يجب أن تقطع ابنتنا علاقتها بها تماما، هذه آخر مرة أراها هنا أو أسمع سيرتها، مفهوم؟

-أعرف.. لكن لم أشأ كسر خاطر ابنتنا.. أن تلتقي بها هنا أفضل من أن يلتقيا خلف ظهورنا.. سأراقبهما طوال الوقت لا تنزعج.

-جيل لا يعلم به إلا الله.. جرأة، استهتار، وقاحة، قلة أدب، عدم احترام، رغبة عارمة في النجاح والشهرة، تيك توك وخلاعة، زمن شاكوش فعلا يحطم أدمغتنا بطرقاته القاتلة. من فضلك اصنعي لي فنجان بن.

-حاضر يا حبيبي حالا. وخرجت مروة من غرفة المكتبة إلى المطبخ.

فتح ضياء الحاسب الآلي بعدما تصفح العشرات من الصفحات في كتب التاريخ العربي والعالمي وظل يبحث عبر محرك جوجل عن كل المعلومات الخاصة بالوباء والأوبئة التي تشبهه.

قادتــه المحركــات للســارس وأنفلــونزا الخنــازير لكنــه كــان يريــد شــيئا مــن الماضي يمكنه من رؤية الحاضر وتصور أحداث المستقبل.

كــان ضــياء قلقــا.. وتزايــد عــدد الوفيــات كــل يــوم بســبب الوبــاء الملعــون يؤرقه. يخاف على أولاده.. على زوجته ..على نفسه.

ظهـر أمامـه أشـهر القتلـة فـي التـاريخ.. الطـاعون.. تـذكر روايـة الطـاعون التــي قرأهــا منــذ ســنوات لكــامو.. وأفــلام الأبــيض والأســود، أخــذ يقــرأ ويقرأ بصوت مرتفع.

كــان معروفًــا باســم "المــوت الأســود" خــلال العصــور الوســطى ، ويقتــل أقـل مـن خمسـة آلاف شـخص سـنويًا فـي جميـع أنحـاء العـالم. قـد يصـبح الطــاعون قــاتلًا إذا لــم يُعــالَج باســتخدام المضــادات الحيويــة علــى الفــور. أكثــر أشــكال الطــاعون شــيوعًا تســبب تضــخم العقــد اللمفاويــة وتورمهــا - تسـمى البوبـويز - فـي الفخـذ أو الإبـط أو الرقبـة. هنـاك نـوع أشـد نـدرة وأكثـر خطـورة مـن الطـاعون يـؤثر علـى الـرئتين ويمكـن أن ينتشـر مـن شخص لآخر.

توقـف ضـياء طـويلا أمـام عبـارة " يـؤثر علـى الـرئتين، وربـط فـي عقلـه بين هذا الطاعون وكورونا وأكمل القراءة.

جــاءت مــروة بــالقهوة والتصــقت واقفــة جــوار كتفــه.. رأت الصــفحة فاســتعاذت بــالله مــن شــر الطــاعون وكورونــا وكــل الأوبئــة. رتبــت علــى كتفه وقالت: لا تترك البن يبرد.

لمس يدها وشكرها: تسلم يدك.

لاحظت أنه منهمك للغاية في القراءة فانسحبت بلطف وتسللت خارجة ولم يشعر هو بغيابها.. لأنه الآن يقرأ..

فكر ضياء قليلا في السؤال الذي حيره وحير الناس، في الماضي البعيد لم تكن هناك معامل لتخليق الفيروسات، وكانت هذه الأوبئة أقدارا ربانية يمتحن الله بها البشر.. والطاعون الرئوي يشبه بدرجة كبيرة كورونا الجديد، فهل يا ترى هو وباء رباني أم بشري.. رباني أم بشري.. ولم يرتح قلبه لإجابة منهما فاستغرق في القراءة، حتى حسب نفسه يمشي بالفعل في شوارع قرية عمواس الفلسطينية منذ ألف وأربعمائة وستين سنة.

ويتحير ضياء، هل يمكن الآن في نهاية عشرين عشرين، إحراق قرية للتخلص من كورونا؟ وإذا أحرقت الحكومة قريتنا لتطهيرها من الوباء، ماذا ستفعل مع القرية المجاورة والمدينة المجاورة، ماذا ستفعل أمريكا وأروبا والصين واليابان و... ماذا سيفعل العالم كله، هذا الوباء مختلف، هذا الوباء كابوس عظيم من الممكن بالفعل أن يمحو الحياة البشرية من الكرة الأرضية، ولن تكون هناك سفينة نوح لإنقاذ النوع، اكتشف أنه يتحدث مع نفسه بصوت مسموع وتذكر نكتة لطبيب نفسي " ما دمت تتحدث مع نفسك فأنت بخير، تتحدث مع الشبابيك والأبواب والدولاب ، اطمئن أنت بخير، أما إذا رد عليك واحد منها، فيجب أن تأتي إليّ فورا"

13

في الخيمة كانت خولة تتحمم في طست، وتغني، وجدت في أنفها رائحة منكرة تعرفها جيدا، تركت رضوان حبيبها يسقط من مخيلتها، ارتدت جلبابها وهي تنتفض من القلق، فتحة صغيرة في رأس الخيمة يمر منها القمر، ومعلق على عامود خيمتها مصباح كيروسين، دارت في الجهات الأربع للخيمة بعينيها، بلا شك هناك ثقب في مكان ما، هناك من كان يشاهد.

ساطع عمها بدوي لا يعرف شيئا في قاموس الشرف أو الحياء أو الرجولة، هي تعرف أنه ذات يوم سيحاول اغتصابها، وهيأت نفسها لهذه اللحظة وتحت كمها دائما سكين صغير بجراب من جلد الماعز، مشهد رأته في فيلم واحتفظت به في رأسها لتنفيذه عندما تقتضي الضرورة، فكرت أنه إن هاجمها الآن فعليها أن تقتله وتهرب إلى رضوان، تذكرت فجأة كم عذبها وأهانها وأذلها وسخرها لخدمته ومكاسبه، يستغل موهبتها في نحت التماثيل الحجرية والخشبية، فكر في بناء مسبك لتصنع له تماثيل ذهبية مقلدة شبيهة بالأصل الفرعوني ليبيعها بالملايين ثم يختفي في أرض بعيدة.

"سأقتلك يا ساطع " قالت لنفسها وكزت على أسنانها، وابتعدت الرائحة رويدا رويدا، فأحست بأمان شحيح واسترخت واستحضرت

رضوان بين يديها وفردت طولها على المرتبة القطنية بدون سرير ونظرت للقمر وأخذت تناجيه وتطلب منه نقل الرسالة لحبيب القلب، و تنحت له تمثالا صغيرا من الحجر الجيري ومن الذاكرة.

رضوان يجلس على باب المغارة، ينظر إلى القمر، يتذكر عسل النحل، ولسعه، ويتلقى الرسائل، ويرفع صوته باسم خولة، أمسك الناي وتفجر بداخله الشوق والحنين، نفخ بقوة، بكل ما في صدره من حنين نفخ في الناي، وطاف النغم في ظلمة الليل المؤنتسة بالنجوم والقمر، من تل إلى تل، من أرض لأرض، من خيمة لخيمة، وارتجفت خولة في مرقدها وسقط التمثال من يدها، ودغدغها النغم، ورفع ساطع رأسه وأدارها تجاه الجبل، حيث يأتي العزف المجنون المحتدم، وقرر أن يعرف، وبدأ يزحف كثعبان في سكون الصحراء تجاه الجبل.

انعكس ضوء مصباحين قويين لسيارة تجري بسرعة جنونية على الطريق النائية قرب الجبل، أغلق رضوان عينيه، للحظات، ووصلت أذنيه أصوات قرقعة واصطدام، فتح عينيه، كانت السيارة تتقلب في الفراغ بارتفاع مترين أو أكثر، ثم هوت بمقدمتها للأسفلت، ثم دارت عموديا وصدمت بمؤخرها الأحجار على جانب الطريق، وانقلبت مرات ومرات ثم سكنت مستقرة على عجلاتها الأربع.

شهق رضوان يا ساتر يا رب، وهبط بسرعة وركض تجاه السيارة المنكوبة.

فـــي أنفـــه وجـــد روائـــح عديـــدة، أقواهـــا رائحـــة احتكـــاك الكاوتشـــوك بالأسـفلت، فـتح البـاب كسـرا، وجـد السـائق ميتـا ورأسـه محشـور فـي احـدى دوائـر عجلـة القيـادة والـدم حـار مـا يـزال، لـم يجـد معـه أحـدا، تفحـص كـل شـيء فـي السـيارة، فـتح حقيبتهـا الخلفيـة بعـد عنـاء ومشـقة لأنهـا تحطمـت، وجـد حقيبـة طويلـة وعريضـة، وحقيبـة أصـغر، أخـذ نقـوده مـن حافظتـه وتـرك بهـا ورقـة واحـدة مـن فئـة مـائتي جنيـه، نـزع الخـواتم الذهبيـة مـن يـده وتـرك دبلـة ذهبيـة، تحـدث بصـوت سـاخر، تلـبس الـذهب وهـو حـرام علـى الرجـال أيهـا الحـزين، فـتح الحقيبـة بعتلـة حديديـة أخـذها مـن حقيبـة السـيارة، وجـد بـداخلها رزمـا عديـدة مـن عملـة الـدولار واليـورو، يعجـز عـن عـدها هنـا، وتمثـالا بحجـم نصـف ذراعـه مـن الـذهب يشـبه تماثيـل آمـون، وضـع مـا سـلبه جانبـا، وأحكـم يديـه إلـي مـؤخر السـيارة وظـل يـدفعها بقـوة حتـى أبعـدها عـن منطقـة الجبـل لمسـافة كبيـرة، نظر إلى الوادي المنخفض عند تلك النقطة من الطريق، وفكر.

هـل يسـقطها فـي الـوادي، أم يتركهـا لسـهولة العثـور علـى الجثـة ودفنهـا؟ هـو يعـرف أن القتيـل الغريـب شـخص فاسـد، شـخص سـيء، وجهـه يلمـع ، رائحـة الخمـر قويـة مـا تـزال تصـدر مـن فمـه الميـت، عطـره المميـز، السلسـلة الذهبيـة فـي رقبتـه، لـون الفـانيلا الداخليـة الأحمـر، و لـم يفهـم مـن بطاقتـه الشخصـية ورخـص القيـادة شـيئا، الاسـم غريـب ومميـز، يشـعر أنـه سـمعه مـن قبـل، لكـن لا يتـذكر، وكلمـة رجـل أعمـال لا تـدل علـى

شيء يمكن تصور ماهية الإنسان من خلاله، لكن كمية الأموال التي قدرها رضوان، بعدة ملايين أشعرته أن القتيل امبراطور من نوع خاص، ولأنه كان يسير بمفرده في هذا الليل الموحش والطريق النائية، فهذا دليل أنه يحاول الهرب من عدو قوي جدا، وأن جميع حلفائه قد خانوه واتفقوا عليه. قال لنفسه: لا أحبكم يا مصاصي الدماء، وأسند ظهره لمؤخر السيارة ونظر للقمر وتذكر خولة، فانزلقت السيارة ببطء وإصرار وذهبت لتستقر في قعر الوادي، فنظر إليها وهي تهوي لمسافة قصيرة، ربما خمسة أمتار، ثم رجع عائدا إلى الغنيمة وهو يقول لنفسه على آخر الزمن زنيت وسرقت يا ابن الإنسان، ثم ضحك وقال : أنا ابن الذئب، أنا رضوان الجبل، وتجسد أمامه وجه فرحات فغلي الدم في قدميه فشق الليل بسيف الخطى والخطايا .

حمل كنزه الجديد وصعد كنملة للمغارة، حتى العقارب لن تسمع وقع قدميه الحافيتين، تحدث هاتف في أذنيه، شخص غريب وخطير في مغارتك.

في صحن المغارة كان ساطع يعبث بأشياء رضوان ويقضم تفاحة بأريحية كأنه في بيته.

هاجمه رضوان وطرحه على الأرض واستوثق من يديه، ثم نطحه بالرأس فدوخه، وسأله بقوة سفاح: من أنت؟

- ساطع.. اسمي ساطع، أنا جارك أسكن قريبا منك في مخيم البدو.

وبينما يدور حوار مثلج بين القوي والضعيف، بين الذئب وحثالة الرجال، بعدما قيده رضوان بحبل، دخلت خولة عليهما.

- اقتله يا رضوان، كان سيغتصبني الليلة، لم يرهبه إلا صوت الناي.

تذكر رضوان الذئب الذي قتله خنقا منذ سنين، وتحطم العظم اللامي تحت يديه ، ومع تحفيز وتحريض وحكايات خولة عن سنوات الذل والعذاب والحرمان والتحرش والتعذيب والكي بالنار، ومع تردد رضوان في ارتكاب جريمة قتل.

رفعت خولة جلبابها وكشفت عن ساقيها من الأعلى أمام عيني رضوان وقالت : سألتني عن النار في لحمي ووعدتك أن أخبرك عندما يجيء الوقت، هذا المجرم هو من فعل كل ذلك بي، وغضب رضوان واستفزه الجسد الناضح بالجمال والعذابات وضغط بقوة،

فاستوفى ساطع آخر مخزون له من الهواء في الحياة.

دفناه معا، ثم احتفلا وأكلا، ومكثا يعدان الدولارات واليوروات، وضربها في فارق العملة، ولما رأت التمثال أكدت له أنه أصيل وحقيقي، ويساوي أرقاما فلكية.

انـدهش لمعرفتهـا بهـذه الأمـور، فأخرجـت مـن جيـب جلبابهـا الطـريح علـى أرض المغـارة تمثـالا بحجـم حبـة ذرة شـامية، ولمـا تأملـه رضـوان علـى ضـوء النيـون الـذي يضـعف لنفـاذ البطاريـة، ارتجـف بدنـه كلـه، كـان الشـبه بينـه وبـين تمثـال الحجـر كبيـرا جـدا، وبـدت موهبـة خولـة فـي النحـت اكتشـافا مـذهلا ومفرحـا جـدا لرضـوان، رغـم جهلـه كيـف يسـتفيد من موهبتها هذه فيما بعد.

فسـألها متـى وكيـف وأيـن تعلمـت النحـت ومـن علمهـا، ثـم رفـع تمثالـه الذهبي أمامها وسألها كيف تأكدت أنه حقيقي؟

- هنـاك علامـات كثيـرة جـدا تكشـف الأصـيل مـن المزيـف، أول شـيء أفعلـه أخاطـب روح التمثـال، أتحـدث معـه ، فـإن حـدثني فهـو حقيقـي، الثـاني أنظـر إليـه مـن كـل الزوايـا فـأراه ينظـر لـي، وتـدور عينـاه تجاه عيني.

- انتظري يا خولة انتظري.

ووقـف رضـوان ونصـب التمثـال واقفـا علـى مصـطبة حجريـة أسـفل الكشـاف المضـيء، وأخـذ ينظـر إليـه ويميـل عـن يمينـه وشـماله، حتـى انتصـب شـعره الأسـود، وفـي أوج فرحتـه قـال: السـلام علـيكم ورحمـة الله. فضـحكت خولـة وقالـت: لا يتحـدثون العربيـة. يمكنـك اسـتخدام لغـة الحب والعين والإشارات، أو تتعلم الهيروغليفية.

سألها أيتها الكاذبة ألم تقولي أنك لم تدخلي المدارس، وقلت أنك في السابعة عشرة أيتها النصابة؟

ضحكت واقتربت منه وقالت: لا تصدق كل ما تراه، لا تصدق كل ما تسمعه، لا تثق في امرأة تلمع عيناها دائما.

- يبدو أنني سأتعلم الخوف قريبا على يديك.

- أنت لا تخاف الموت، كيف ستخاف مني، لا تبدو من النوع الذي يهزه الندم وتحطمه الصدمات، أنت مهيأ تماما لأي فجيعة، وأي خيانة، وأي كارثة حتى لو كانت موتك.

- كم عمرك يا خولة؟ ومن الذي علمك كل هذه الأشياء، النحت، واللغة القديمة، والأرواح، وفهم الرجال، وشهوة القتل، أنت اللغز الذي التقى اللغز.

- سنعرف بعضا يوما بعد يوم، هل طمعت أن تعرفني وتفهم روحي وسري في ساعة غرام واحدة.

- لكن كيف قلت لي أنني حبيبك؟

- رأيتك من خلف الغبار وعرفت أنك نصيبي الذي أنتظره، وأنك فرحتي وحياتي وخلاصي، ألم تفكر أبدا ما الذي جاء بي من خيمتي إليك؟

- لم يخطر ذلك ببالي.

- لأنك مغرور يا حبيبي.

ثم سكتت خولة زاد وأطفأت المصباح.

لم يقل رضوان لحسن عما جرى في الليل، على الرغم من رغبته الهائلة في إعطاء حسن نصف ما حصل عليه، لكنه يعرف أن رجلا صالحا كحسن لن يتقبل مجرد التفكير في الإبقاء على هذه القذارة، وشجعته خولة على الصمت، وركبا السيارة وانطلق بهما حسن إلى الزهراء، وهو يتعجب لمنظر "الجوال " الذي يحتوي أشياء لا يعرفها، لكنه ظن أنها متعلقات وملابس خولة.

طلب رضوان من حسن شراء بدلة سوداء أنيقة بحجة إقامة حفل زفاف صغير، ومع البدلة اختارت خولة فستان فرح أبيض بذيل طويل.

واستطاع الصواف استخراج شهادتي ميلاد وبطاقتي رقم قومي للعروسين، مما سهل إتمام الزواج القانوني على يد مأذون الزهراء، بعد أن دفع مبلغا كبيرا لإتمام الأوراق، فلا خولة مسجلة في سجلات الحكومة، ولا رضوان يملك بطاقة شخصية، وعندما سألها موظف السجل عمرك كم سنة؟

قالت : تسعة عشر!

وفهم رضوان الإيحاء المخيف لهذه العبارة، وعرف أن حياته مع امرأة جهنمية كخولة تقتضي الذكاء والحكمة والإخلاص، وكان يزعجه دائما مشهد مقتل عز الدين أيبك في الحمام، أمام شجرة الدر بعد أن رجاها وتوسل لها أن تتركه يعيش، حتى ركع وقبل قدميها، ولما رقّ قلبها له وطلبت من عبيدها السود، العفو عنه، لم يهتموا لأمرها وقتلوه، بحجة أنه إن لم نقتله نحن بعد انكشاف المستور، سيقتلنا هو ويقتلك، ويشعر رضوان بغبطة وتشف عندما يتخيل شجرة الدر وهي تموت في الحمام عارية .

14

للمـرة الأولـى يجلـس رضـوان بحريـة أمـام جهـاز تلفزيـون، دون أن يقطـع عامـل مقهـى مـزعج خلوتـه مـع فـيلم جميـل أو فيـديو كليـب لأجـل ماتش كرة للزمالك أو الأهلي، أو اللهاث خلف ماتشات محمد صلاح .

وبـدت خولـة فـي الثيـاب الأنيقـة كهـانم أو أميـرة، كبنـات الأثريـاء المتعلمـات، وبـدأت بجديـة تحضـر فصـول محـو الأميـة وتـتعلم بسـرعة وتقـرأ بشـراهة، وكـان رضـوان يتعجـب لقـدرة الثيـاب علـى تزييـف الأشـياء، وكيـف يمكـن للأناقـة أن تجعـل اللـص جمـيلا، والقاتـل وجيهـا، والفاسـد محترمـا، ويقـول لنفسـه، دنيـا مـن ذهـب قشـرة مغشـوش، ويتـذكر عبـد المـنعم مـدبولي الممثـل الـذي يحبـه وتـدور أغنيتـه الشـهيرة فـي رأسـه فيمسك الناي ويدندن.

زمان زمان وليالي زمان

كان الزمان إنسان

وعنـدما تـراه خولـة يحـاول السـفر إلـى دنيـا الطهـر والنـور تشـده إلـى عالمهـا الفـاقع الألـوان الحـار، فينسـى معهـا حياتـه القديمـة والفقـر وخطايـاه التي أتمت ثالوثها المقدس، فزنى وسرق وقتل.

أحيانـا يحـن إلـى المسـجد، للصـلاة، لأطفـال القريـة، للعصـافير. لرائحـة أمه ريحانة التي لم تحترق في حريق عشته.

تـذكر أنــه لأول مــرة يسـكن مكانــا آدميــا بــدون مكتبــة، وقــرر أن يعيـد تأســيس مكتبتـــه مـــن جديـــد، أوحشـــه تولســـتوي وتشـــيخوف ومـــاركيز وكـازنتزاكيس، أوحشـته ألـف ليلـة وليلـة، أوحشـه كتـاب عظـيم جـدا يسـكن أعمــاق روحــه المعذبــة وجســده العــامر بالخطيئــة، لقــد أوحشــه القــرآن، أوحشــه ســفر التكــوين فــي التــوراة، أوحشــه انجيــل متــى، أوحشــه عمــر الخيام وهوميروس وشكسبير، وفكر وفكر.

أما خولة الذئبة العارمة، فكانت تحاصره بالحلوى كل حين.

ويحكـي لهـا أحـب قصـة إلـى قلبـه، ويناغشـها ويقـول لهـا كـان ياما كـان، كــان هنــاك شــاب فقيــر اســمه رضــوان، يعــيش فــي رضــا وراحــة بــال، ينظــف المســجد ويــؤذن للصــلوات، وذات يــوم التقــى درويشــا مســكينا، فسأله كيف يمكن للفقير أن يغتني؟

وقـال المسـكين: اسـمع لـيس هنـاك غنـى مـع زنـا، وإن اجتمعـا لحـين افترقـا إلـى أبـد الآبـدين، وقـال لـه الغنـى فـي الرضـا، وحكـى لـه عـن الشـاب القـوي الـذي قـرر أن يـذهب إلـى مدينـة الـذهب ليحمـل منهـا كنـزا ويعـود، لكـن حكـيم القريـة أخبـره أن اليـوم فـي مدينـة الـذهب بمائـة عـام، وطـاف الشـاب بالمدينـة وكلمـا اختـار قطعـة ذهـب أو جـوهرة تركهـا وأخـذ أخـرى، ومـر اليـوم بسـرعة، وقـد مـلأ جـوالا كبيـرا مـن الـذهب والجـواهر، وعنـدما حاول حمله على كتفه ليعود من حيث جاء عجز عن ذلك.

فقد أصبح رجلا عجوزا جدا عمره مائة وعشرون سنة، وثقلت قدماه وعجز عن مغادرة كهف الذهب وهناك فوق جواله الممتلئ بالجواهر عاد ترابا ولم يبق منه سوى عظمة يا ولدي مثل ناب الذئب.

وتتنهد خولة وتحن للسلام الداخلي الذي فقدته بالانتقام من عمها ساطع، وتقول كان يمكننا أن نسامحه ونتركه لحال سبيله.

ويدمع رضوان ويقول ما شاء الله كان ويمسك الناي وينفخ ويترنم

(مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها)*

ويلتصقان.

.....

*بيتان شهيران منسوبان لأبي العلاء المعري

15

صار رضوان يعرف أخبار القرية عبر الهاتف المحمول من حسن، ورغم أنه فتح حسابا على فيس بوك، فقد تركه سريا وبه صورة مستعارة.

كل يوم تأتي أخبار وفيات جديدة من كل مكان، من القرية والمدينة وكل أنحاء البلاد والعالم، وحبس الوباء الناس في المنازل استجابة لقانون الحظر الصحي.

وكان حسن يشرح لرضوان حجم الضغط الهائل الجديد على كتفيه، فلم يعد الأمر مجرد رعاية مائة أسر أو مائتين، بل حلت الكارثة بآلاف الأسر وكاد الناس يموتون جوعا بعد انهيار البورصات وإغلاق المصانع والشركات وتسريح العمال، الحياة توقفت، لكن الأكل والشرب والدواء لم يتوقفوا.

وفكر رضوان في المساهمة. لكن كيف سيخبر حسن؟

الودائع الضخمة في البنوك تؤمن حياة رضوان وخولة لأجيال بعد أجيال، لكن غصة المال الحرام مرة جدا. وحسن سيسأل ويتبين وسوف يرفض بل قد يقاطع صديقه وزوجته.

وقالت خولة: قل له أنك وجدت تمثالا وأنت في الجبال، وشهق رضوان ونهض وأحضر التمثال من الدولاب وعانق امرأته وقال لها

: كيف غابت عني الفكرة العبقرية. ثم اغتم وسكت. وقال لها : لكن الله يعرف أن هذا مال قذر، كيف سيمكننا أن نخدعه؟

- تقصد من؟

ونظرا لبعضهما كشيطان وشيطانة. في صمت وهما يعرفان كل الخفايا.

ثم مرت ببالها فكرة.

خلال شهر من الإجراءات والمصروفات أسس رضوان وزوجته مؤسسة خيرية، تحت اسم " فرقان.. مكافحة أثار جائحة كورونا"

وكانت شبيهة ببنك طعام وملابس وأدوية ومعاشات صغيرة شهرية.

ومرت الأشهر المرعبة المليئة بالمصابين والموتى، وذاع صيت المؤسسة، وقلدتها مؤسسات جديدة، ودون أن ينتبه رضوان وخولة لما يحدث، أصبحا نجمين مشهورين يظهران في برامج كثيرة.

حسن سأل صديقه من أين لك هذا؟

وأكد له أن خولة زوجته كانت تملك تمثالا فرعونيا باعه بمائة مليون جنيه، ثم عرض عليه عشرين مليونا، ورفض حسن بدون كلام كثير.

وقبل أن يودعه وهو في قمة السعادة لتغير حاله، ذكره بمقولته العصماء، الفقر حشمة، لولاه لأسقطت الخطايا والمظالم السماء على الأرض.

رضوان نسي فرحات وشره، وهرب من الكراهية والحرب للسلام والهدوء، بعيدا عن الأشرار وأذيتهم، لكن فرحات بمجرد أن رأى رضوان على الشاشة، لم يصدق ما يراه، ولما سمع الاسم بهت، والتف حوله أبناؤه والحقد يحرق جلودهم فتشيط وتبلغ الأنوف رائحة منكرة، تشمها الضفادع والكلاب والخفراء والخدم ، إلا فرحات وأبناءه.

هذه المرة قرورا قتل رضوان بغرض السرقة، وإن لم يجدوا شيئا للسرقة، حرموه من الفرحة والحياة وتكوين أسرة، واتفقوا أنه لا ينبغي أن تلد هذه الشابة السمراء ولدا لرضوان ينقل نسله الشيطاني إلى العالم. سأل علوان: هل سنحرقهما هذه المرة أيضا؟

رد فرحات: لا سنعمل شغل ديجيتال!

ضحك حسان وقال لأبيه أنت الآن تغرد على تويتر يا حاج وتطلع في بث مباشر على فيس بوك، سبحان الله. لكزه أبوه في صدره وسبه بمزاح تقصد ايه يا ابن الجزمة.

فرد حسان يا خوفي لتسمعك. ثم تضاحكوا وجلسوا لتدبير الجريمة.

16

بعدما حبلت خولة، باع رضوان الشقة وربح فيها خمسين ألف جنيه، وأقنع الصواف بأخذ المبلغ، واشترى فيلا من طابقين، حولها نخيل وأشجار برتقال ويوسفي، ويمر جوارها مصرف كبير، أعاد لرضوان هوايته القديمة في صيد القراميط والبلطي.

لم تكن الفيلا تنقصها أسباب الرفاهية، رغم ذلك اشترى شاشة تلفاز حديثة ضخمة بطول مترين وعرض متر، وقام بتركيب هاتف أرضي ومن خلاله أدخل انترنت الواي فاي للفيلا، وبدأت الحياة تضحك، لكن الخمول والراحة ضغطا على الزوجين بقوة، رغم نشاط المؤسسة، والأعمال الخيرية الكثيرة والشهرة المتنامية.

ذات ليلة طلبت خولة من رضوان، معدات وأدوات وأفرانا وذهبا ونحاسا، وفاجأته بصناعة أول تمثال ذهبي مقلد شديد الشبه بالتمثال الأصلي، وقالت له ستحتاج التمثال المقلد لحماية حياتنا وحياة التمثال الحقيقي.

وعندما ركب السيارة ليلا وأوهمها أنه سيزور صديقه لأنه مريض، قالت له ، احفر عميقا لمترين ولف التمثال بالكتان قبل دفنه واحترس لنفسك وأنت في الجبل.

وكادت الدهشة تخرسه.

فـي اليـوم التـالي طالبتـه بضـرورة وجـود خفـراء لحراسـة الفـيلا، وأعجبتـه الفكرة، لأنه تذكر تفاخر فرحات بخفرائه وعزوته.

تـذكر رضـوان سـميح وأكـرم، وقـرر أن يسـتعين بهمـا أيضـا، ليكـون سـببا في رخاء حياتهما البائسة.

عنـدما حضـرا إليـه، لـم يصـدقا أن هـذا الثـراء الكبيـر اختـار رضـوان دون خلـق الله، وتعجبـا لـذلك، ولـم يفهمـا كيـف جـرت الأمـور، وظلـت بـداخل كـل واحـد منهمـا أسـئلة حـائرة، وتلاعـب الشـيطان بهمـا فأرسـل عليهمـا غيمة سوداء من الغيرة والحسد والحقد.

لكـن رضـوان كـان خبيـرا وعليمـا بتقلبـات البشـر، وضـعف الإنسـان أمـام الشـهوات والرغبـات، فعـرض عليهمـا عرضـا سـخيا جـدا، أطفـأ بـداخلهما جمرات الكراهية.

- اسـمعا جيـدا، لـيس لـي أخـوة، صـديقي الوحيـد هـو حسـن، وأنتمـا من أحب الناس إلى قلبي، لقد اخترتكما لتكونا أخوين لي.

- نحـن نحبـك كمـا تحبنـا يـا رضـوان، قـال سـميح بعفويـة، وأكـد أكـرم على كلماته.

- طيـب، الفـيلا واسـعة، الطـابق الأرضـي تسـكنان فيـه، مـع الخفـراء الثلاثـة، سـأُقوم بتوظيفكمـا فـي المؤسسـة، براتـب شـهري سـتة آلاف جنيه لكل منكما.

شـهق الشـابان فرحـا وطفـر الـدمع فـي أعيـنهم، وهمـا لا يصـدقان مـا يسمعانه. وارتجفت الكلمات على لسانيهما.

- اسمعا جيدا، منذ اليوم سنكون أخوة، هل تقبلان هذه الأخوة؟

- طبعا هذا شرف لنا، قال الشابان في صوت واحد.

- طيب، لقد اشتريت لكل واحد منكما شقة سكنية مؤثثة ومجهزة.

صـرخ الشـابان ووقفـا فـي حالـة ذهـول وتـوتر ثـم بكيـا واختنقـا بالـدموع. أحضـرت لهـم خولـة العصـائر والتمـور، وقالـت : بعـد قليـل يكـون الغـداء جاهزا.

- اسـمعا جيـدا، سأضـع لكـل واحـد منكمـا وديعـة بنكيـة باسـمه بقيمـة ربع مليون جنيه.

فانـدفع الشـابان فـي حمـاس قـوي وقـبلا يـد رضـوان، ثـم احتضـناه وظـلا يقبلانه ويبكيان.

-اسـمعا جيـدا، سـأزوجكما خـلال أسـابيع، فاختـارا فتـاتين ، لأسـتريح مـن عزوبيتكما، خولة زوجتي أنا ، ها.. مفهوم يا رجالة!

كـاد الشـابان يفقـدان الـوعي مـن تلاحـق صـدمات الفـرح، وفـي ربـع سـاعة فقـط، ذابـت جبـال الحسـد والغيـرة والحقـد وتحولـت غيمـة الشـيطان إلـى جسر من المحبة والإخلاص لرضوان وزوجته.

الآن صنع رضوان لنفسه عزوة وعائلة، قوة صغيرة بقربه، ثلاثة خفراء وسميح وأكرم، وخولة وهو.

في اليوم التالي وقف رضوان مع رجاله الخمسة، في الحديقة الخلفية للفيلا، للتدرب على إطلاق النار، خمسة شبان أقوياء يطلقون الرصاص على أهداف ثابتة ومتحركة منصوبة أمام جدار خرساني عال معد خصيصا لهذا العمل.

خلال أسبوع فقط لم يكن الشبان الخمسة يفعلون شيئا سوى النوم والأكل وإطلاق النار، وكان عم معطي الصياد العجوز ينزعج جدا أثناء صيده للأسماك والقراميط من الترعة الملاصقة للفيلا وتشكل مانعا طبيعيا لها من جهة الشرق، لا يفصلها عن الفيلا سوى سلك قوي منصوب كسور. وكان رضوان يمازحه :أي قراميط تصطادها تحضرها لي يا عمي، ويعطيه مالا كل يوم سواء أحضر له أسماكا أم لا.

انتظر رضوان الشر من أوسع أبوابه وأضيقها، من فرحات ومن أعداء آخرين لا يعرفهم.

ولم يتأخر.

17

سميح تزوج من فتاة لا يعرفها، اختارتها له أمه، أما أكرم فعاد وطلب يد فاتن، حبيبته الأولى التي رفضه أبوها بسبب فقره، لكنه هذه المرة وافق بمجرد أن علم أن أكرم يمتلك شقة واسعة أربع غرف، ولديه عمل ثابت بدخل جيد، كما أن الفتاة كبرت لكثرة رفضها للعرسان بحجج كثيرة. وكان الأب يعلم أن فاتن تحب أكرم، وأقلقه هذا الحب كثيرا وأرقته الأفكار المرعبة، لكثرة الحوادث التي ترتكبها الفتيات باسم الحب في زمن الانستيجرام والتيك توك والفضائح.

أقام رضوان لهما حفلا كبيرا في الفيلا، ووجه الدعوات للعمدة وللصواف ولفرحات نفسه وابنيه ولكثيرين من أهالي القرية وأقرباء العروسين والعريسين. كما وجه الدعوة لمجموعة من الخفراء المجاورين في الأراضي ومزارع الأبقار، وأعطاهم أموالا، وكان الرصاص يهدر في السماء من أسلحة كلاشينكوف وبنادق آلية حديثة، ومع كل رصاصة تزأر، ظن فرحات أنها أصابته هو. وكان يهمس لابنيه في ذعر، لقد أصبح يمتلك جيشا، خطتي الديجتال تلفت قبل التفكير في تنفيذها!

تلك الليلة، وضعت خولة رأسها على صدر رضوان وهي لا تصدق كيف تعلم زوجها هذه الأفكار الشيطانية منها بسرعة، ومازحته قائلة: فرحات وأولاده لن يفكروا مطلقا في الاقتراب منا.

لكـن رضـوان نبههـا قـائلا :أن الحيـاة مليئـة بفرحـات وأنـه يتناسـخ مـن جيـل إلـى جيـل ومـن صـلب إلـى صـلب، وتحييـد فرحـات بـالخوف والقـوة والرجال والسلاح. لن يمنع ظهور فرحات غيره أو ساطع جديد.

وتـداعبا وضـحكا ونسـي أنهـا حبلـى فصـرخت، سـتقتل ابننـا أيهـا الـوحش، فحملها بين يديه ودار بها وداخا معا.

أمـا فرحـات وابنـاه، فقـد ظلـوا يحرقـون العشـرات مـن أحجـار المعسـل والتمبـاك، فـي صـالة الفـيلا حتـى طلـع الفجـر وهـم فـي حالـة غـل وغـم وحيرة ويأس.

طفولـة فرحـات كانـت طفولـة شـريرة مؤذيـة، لا يتـرك القطـط لحالهـا، يقتلهـا بكـل الوسـائل التـي تتـاح لـه، يضـع لهـا سـم الفئـران القـوي الأسـود فـي اللـبن، وكـان السـم يختـرق المعـدة والجلـد ويصـنع حفـرة فـي الأرض مكـان الجثـة المغـدورة، يـربط الكـلاب الصـغيرة بحبـل حريـري رفيـع ويجرهـا بقسـوة، حتـى يحـز الحبـل رقبـة الجـرو المسـكين، وربمـا يذبحـه، لا يتـرك ولـدا فـي عمـره مـن أسـرة فقيـرة دون أن يضـربه، أو يركلـه، أو يرعبـه ويطـارده جريـا لمسـافة طويلـة، حتـى يسـقط الولـد ويصـيب وجهـه، أو ركبتـه. وعنـدما يجـرب فرحـات حظـه فـي العـدوان علـى ولـد مـن أسـرة قويـة وغنيـة، كـان يتعـرض للضـرب والإصـابة، لكـن لا يتـوب عـن ظلمـه وأذيتـه ولا يتوقـف أبـدا، وكـان أبـوه رجـلا سـيئا، ينهـره فـي العلـن أمـام النـاس، ولا يعاقبـه فـي السـر، ممـا شـجع فرحـات علـى الاسـتمرار فـي الشيطنة.

ولما أصبح شابا ناضجا متزوجا، انتقل شره إلى الطمع في الفلاحات الجميلات الصغيرات، فيعتدي على هذه بكلمة، وعلى الأخرى بلمسة، حتى وصلت به الجرأة لاغتصاب فتاة يتيمة، وغضب رجال وشبان كثيرون في القرية، وفكروا في قتل فرحات المجرم، لكن في ظروف غامضة، دخل بعضهم السجن، واختفى البعض، وألقى أبوه رزمة نقود لعمة الفتاة تعويضا لها عن شرفها المهتوك.

لكن المرأة ألقت بها في وجهه وبصقت عليه، ولم يتحرك المحضر في مركز الشرطة، كأن فرحات هو حاكم الدنيا. وعرض سميرة الذبيح بلا ثمن. ولم تجد العمة وابنة أخيها سوى مغادرة القرية ليتمكنا من الحياة مرة أخرى بدون عار ولا ظلم، وأثمرت الخطيئة ولدا، ولولا رحمة العمة لقتلت سميرة الولد، ويومها أسمته " عائد"

كانت العائلة الكبيرة والسطوة والمال والعزوة، تمنح فرحات وأسرته حصانة ضد العقاب، ومرت به السنوات وهو على شره وجبروته، اليوم تجاوز السبعين، ما يزال فمه يصدر فحيحا ونارا، ويده تحاول البطش متى استطاعت، ورغم أنه يصلي الجمعة في المسجد، فلم تظهر عليه طيلة حياته، أي علامة تدل أن هذا الكائن يؤمن بوجود إله جبار ومعاقب ولا يفلت من حسابه أحد.

وفي دار العمودية سألت مروة زوجها العمدة عشرات الأسئلة، بينما كان هو يفكر بدون ضغينة في الثروة الهائلة التي ظهرت فجأة على رضوان.

سألته مجددا وهو شارد، أين وصلت يا عمدة؟

- رجل الأعمال الميت في سيارته قرب الجبل.

- ماذا عنه؟

- رضوان كان هناك يومها.

- نعم أنت أخبرتني.

- الغريب يا مروة، أن زوجة الرجل وأخوته، لم يبلغوا الشرطة عندما اكتشفت الحادث عن مسروقات أو أي متعلقات مفقودة.

- نعم أعرف.

- رغم أنه رجل أعمال شديد الثراء!

- ماذا تريد أن تقول؟

- ثروة رضوان من أين حصل عليها؟

- نفس سؤالي.

- الحقائق الكاملة تظهر في نهاية الطريق، أطفئي النور.

- هناك موضوع مهم نسيت أن أخبرك به.

- ما هو.

- حنين.

- حنين من؟

- زميلة ابنتنا.

- ما لها ؟

- الشـرطة ألقـت القـبض عليهـا بسـبب فيـديوهات مخلـة تـروج للإباحية.

انـتفض ضـياء مـن فراشـه واقفـا، ونظـر لزوجتـه بغضـب ومـرارة، ثـم قـال لهـا وهـو يغـادر الغرفـة: لقـد كنـت أعـرف أنهـا فتـاة خاطئـة، واتجـه إلـى غرفة ابنته نيرة، وهو يرتعش من القلق والضيق والعصبية.

قامـت مـروة ولحقـت بـه علـى أطـراف أصـابعها، لتسـمع الحـوار الـذي سـيدور بـين زوجهـا وابنتـه، لكـن ضـياء أغلـق البـاب خلفـه جيـدا، وكـان يهمس همسا لم تسمعه جدران الغرفة. وأشرق النهار.

ظلـت كلمـات العمـدة تطـن كنحلـة مزعجـة فـي رأس البنـت المراهقـة، عرضـك هـو روحـك، لا تنجرفـي وراء أمثـال هـذه الفتـاة المسـتهترة، أنـت بنـت نـاس، رأسـي مرفـوع بـك وبأخوتـك، أي تصـرف طـائش مـن هـذه التصـرفات، سـتلطخين سـمعتنا فـي الوحـل إلـى الأبـد، أنـا أعـرف أنـك عاقلـة وناضـجة، كـوني حريصـة يـا نيـرة، أريـد أن أفتخـر بـك طـوال حياتي، وفي قبري.

لم يكد أسبوع يمر على حبس حنين، ونسيت نيرة كلمات أبيها، كان قلبها قد تعلق بقوة بممثل شاب ناشئ اسمه فريد، شديد الوسامة والجمال، طويل وممشوق، كحيل العينين بأهداب طويلة، له عينا غزال، أبيض البشرة، رقيق الملامح، فمه كشفتي طفل صغير، أنفه دقيق وحاد ومرفوع لأعلى، شديد الثقة بنفسه، صوته عذب، ومن أسرة ثرية، ولديه سيارة جيب حديثة. وكانت نيرة تشبهه تماما كأنه توأمها، الشاب لم يكن يفكر في الزواج من نيرة، رغم ثراء أسرتها وعمودية أبيها، بل ينتقل من فتاة جميلة لأخرى كما تنتقل النحلة من وردة لوردة. حاول أن يخرج معها، شجعها على الهرب من حصة الرياضة في وسط المدينة، لتبقى معه ساعة، لكنها ظلت ترفض اغراءاته، جرب أن يستدرجها عبر الشات لتتعرى له، رفضت بقوة، وظلت لعدة أيام لا تفتح الفيس ولا الواتس ولا الانستيجرام، اتصل بها، أرسل لها الرسائل الهائمة المليئة بكلمات الحب المعسولة والغرام، خدعها بأنه اختارها زوجة المستقبل، ولكن لم يستطع زحزحتها عن موقفها الرافض للانجراف معه. عند ذلك لجأ للحيلة القديمة.

ظل يترقب دخولها لفيس بوك أو واتس آب، ولم تحتمل الفتاة بعد عدة أيام، وظهرت أمامه أون لاين، فأرسل إليها عدة صور غرامية له مع صديقتها حنين.

لـم تحتمـل نيـرة الصـغيرة نـار الغيـرة والغضـب والانزعـاج، فبكـت وأغلقـت الهـاتف، لكنهـا فـي الليـل، كانـت تحتـرق وامـتلأ رأسـها بأفكـار حمقـاء. فتحـت الماسـنجر، كانـت أغلقـت بـاب غرفتهـا عليهـا، اطمأنـت لنـوم أمهـا وأبيهـا، كانـت السـاعة تقتـرب مـن الثالثـة فجـرا، ارتـدت شـورت وتـي شـيرت ضـيق، وظـل فريـد يلـح عليهـا وهـي تتمنـع وتـرفض اسـتقبال مكالمـة الفيـديو، فصـدمها بصـورة لـه، زلزلـت كيـان الفتـاة، وفتحـت له.....الكاميرا.

كانـت تلـتقط صـورة وترسـلها إليـه وتقـوم بحـذفها بعـد ثـانيتين أو ثـلاث، وكـان هـو أسـرع منهـا، فـيحفظ الصـورة إلـى الهـاتف، وتجـرأت الفتـاة الصـغيرة، فانتقلـت العلاقـة مـن الصـور العاديـة وبـوز البطـة، إلـى صـور بملابـس تشـبه أيـام المصـيف والشـاطئ ، ثـم إلـى صـور تشـبه غـرف العـرائس، حتـى وصـلت للمـوز المقشـور، وهـي تثـق ببلاهـة فـي حبيبهـا الـذي لـن يعرضـها للفضـيحة باحتفاظـه بهـذه الصـور الخطيـرة، كمـا توهمت هي.

18

يئس فرحات وابناه من فكرة التخلص من رضوان، كان منتهى أملهم، ألا يفكر هو في الانتقام منهم لأنهم حاولوا إحراقه من قبل.

أما رضوان فكان ينتظر الشر من مكان آخر، والدليل الوحيد الذي من الممكن أن يكلفه حياته كان التمثال الفرعوني. لذلك ظل حريصا ألا يعلم عنه أحد شيئا ولا مكان دفنه وإخفائه، لأنه يعلم أن حربا أكبر من قدراته ستقع حين يتسرب أي خبر صغير عن وجود تمثال أثري بحوزة درويش تحول لشخص ثري خلال أسابيع.

وفكر رضوان كيف يمكن إخفاء تمثال كهذا لمدة عشرة أعوام أو أكثر؟ لقلقه الكبير على وجود التمثال في حضن الجبل ، ومن السهل أن تقع الصدفة ويحفر أحدهم ويكتشفه، كما كان قلقا من تحرك التمثال خلال الرمال من مكانه لمكان آخر، لكن أكثر ما يشغله رعبه لوقوع خولة تحت تعذيب جسدي متوحش، ستعترف تحت قسوته بما تعرفه، وعندها سينهار كل شيء، الثروة والعز والعزوة والحياة الجميلة، خاصة أنها عرفت بمفردها أنه أخذ التمثال الحقيقي لدفنه أمام المغارة القديمة. ورغم أنه لم يؤكد لها المعلومة، فهي تعرفها.

ولم يجد رضوان أمامه سوى ، أن تختفي خولة معه في بلاد بعيدة، وقرر أن يسافر معها إلى أستراليا، ويظلان هناك لفترة في سرية تامة، دون أن يعلم أي شخص أين سافرا، حتى سميح وأكرم.

وتحت غطاء السفر إلى سفاجا، للتداوي من أمراض جلدية في رمال المدينة، أمر رضوان صديقيه بإدارة المؤسسة والقيام بكل الأمور نيابة عنه حتى يعود.

وبالأوراق الرسمية التي استخرجها الصواف لرضوان وخولة، استخرج جوازي سفر، وخولة مندهشة لا تفهم ماذا يحدث .

سميح رأى رضوان يحفر ويدفن شيئا ملفوفا في الفناء الخلفي وراء الفيلا ليلا. لكنه لم يستوعب ما يراه، وتذكر عهد الأخوة ، فتجاهل الأمر ولم يكشف لرضوان أنه رأى، لكن رضوان تعمد أن يجعل سميح يرى.

وعندما استأذن سميح وأكرم من رضوان كالعادة عند منتصف الليل، ليذهبا لزوجتيهما في مدينة الزهراء المجاورة، لمح في عيني سميح أسئلة تلمع لكنها خرساء مكظومة.

ووجد رضوان ذلك الصوت القديم يهتف في أذنه، أن سميح سيضعف ويخون العهد والعيش والملح ويجرفه الطمع، فاستخرج التمثال ، وتسلل في الليل ماشيا، ودفنه خلف الجامع الصغير القريب من الفيلا، وفي الفجر كان في طريقه مع خولة إلى مطار القاهرة وهي تتساءل باستغراب إلى أين تذهب بنا يا رضوان؟

فيقول لها: سنرى العالم يا خولة.

قبل صعود الطائرة ترك رسالة صوتية لحسن الصواف على الواتس آب، لم يوضح له فيها أي شيء، فقط قال له: لا تقلق سأكون بخير وسوف أتصل بك. ثم نزع شريحة الهاتف ليحتفظ بالأرقام وأغلق الهاتفين وألقى بهما في سلة المهملات، وأقلعت الطائرة.

في سيدني نزلا في فندق، وخلال أسبوعين اشترى بيتا صغيرا في كوينزلاند، ملحق به حظيرة مواشي وأغنام على أحدث طراز، آمنة من الذئاب واللصوص، ومزودة بكاميرات مراقبة وأجهزة رؤية ليلية، وكانت خولة تظن أنهما ذهبا إلى جنة وليس إلى بقعة في هذا العالم.

سحر الطبيعة الخلاب، المروج الخضراء، الأشجار، الطقس الدافئ، مزارع الأغنام الكثيرة، الناس المكافحون الطيبون، اتساع البحر في المحيط، حيوانات الكنغر، السهول والجبال والوديان، جعلت الزوجين يشعران أنهما في جنة حقيقية.

هنا من السهل إقامة حياة جميلة مرحة ونشيطة وطموحة، ومع توفر المال أحس الزوجان أنهما في حلم جميل لا ينتهي.

كان رضوان يدرك أن رقم الهاتف سيظهر عبر تطبيق الواتس آب ومن السهل معرفة مكانه عبر أي برنامج محادثات، أو بريد اليكتروني، أو حتى رسالة بريدية ورقية كما في الماضي القريب. وظل متحيرا لعدة أيام كيف يتواصل مع الأحبة في مصر، خصوصا حسن.

حاول سميح أن يتصل برضوان مرات عديدة ليطمئن عليه. خاصة بعد مرور أسبوع على سفره إلى سفاجا كما يعتقد. وفكر أن يخبر أكرم عما رآه. لكنه صبر حتى يحفر ويعرف ما هو الشيء الذي دفنه رضوان. ولم يكن سميح يعرف أن كلماته المنبهرة بجمال وسحر أستراليا وخاصة كوينزلاند، ستزرع في قلب رضوان حبا كبيرا لهذه الجنة البعيدة، التي سافر إليها خلال عشرين ساعة، لم يتوقف خلالها سوى في أبو ظبي لعدة ساعات ترانزيت، عبر طيران الإمارات المنطلق من القاهرة. ولما رأى رضوان حيوان الكنغر يتقافز ويلهو لم يصدق عينيه، ودون أن يشعر تمنى أن تكون هذه الأرض عامرة بالذئاب، وذات مرة رأى فراء حكه أحد الذئاب في جذع شجرة، فأحس بفرح عامر، كأنه يحن لسحر غامض يربطه بهذا الوحش الضئيل الجميل، الذي نهش واحد منهم جزء من لحمه في جبل قرية النخيل.

عندما توفرت الفرصة لسميح لم يستطع مقاومة الإغراء وأخذ يحفر ويحفر، وظن أنه أخطأ في تقدير المكان، لأنه لم يجد اللفافة.

وهو في حيرته وذهوله وجد خفيرين من الثلاثة يقفان خلفه، ويشاهدان، وسألاه عن ماذا يبحث ؟ورأى في أعينهم الغدر والطمع، الحفر التي حفرها بالفأس والجاروف عديدة، وتكفى لموتى كثيرين، لكنه منهك ومتعب، فتحايل عليهما وحاول خداعهما، لكنهما نظرا لبعضهما ثم هجما عليه، ضغطا عليه وهدداه بدفنه حيا، إن لم

يخبرهما بالحقيقة، فاعترف. وظل الثلاثة يحفرون ويحفرون، ولما جاء أكرم أخبره سميح بما جرى وظل الجميع يحفرون بدون يأس لاستخراج كنز رضوان. ولم يعثروا على شيء.

فانتقلوا للبحث داخل الفيلا، كالمجانين، كان الشبان الخمسة يفتشون في كل مكان، حتى داخل المراحيض، خلعوا بلاط الأرضيات، هدموا بعض الجدران، أصابتهم حالة صرع محمومة لمجرد وجود فكرة كنز مدفون، أو كنوز أخرى، وفي سكرة انهماكهم في الحفر والهدم نسوا أنهم تدربوا على إطلاق النار طويلا، لكن لم يتساءل واحد منهم لماذا كانوا يتدربون بجدية وحزم.

لم يفيقوا من السكرة إلا عندما أحاط بهم مجموعة من الرجال الأقوياء المسلحين، قبضوا عليهم وقيدوهم وسألوهم عن رضوان وزوجته. فقالوا جميعا :في سفاجا.

الرجل الذي يقود مجموعة المسلحين، استجوب الشبان الخمسة بقسوة وأكد لهم أنه سيقتلهم إن لم يعطوه التمثال الفرعوني.

عندئذ فهموا جميعا لماذا سلحهم رضوان ودربهم على إطلاق النار، وأدرك سميح أن اللفافة التي رأى رضوان يدفنها كانت تمثالا أثريا. فاعترف بما رآه وبعمليات الحفر والبحث دون جدوى، وتحت وطأة التعذيب والتنكيل تأكد الرجل أنه لا توجد معلومات أخرى لدى الشبان

الخمسة، رغم ذلك أشار لرجاله، وعبر كواتم الصوت صرخت خمسة أرواح مغدورة وخرجت من عالم الجسد إلى عالم الأطياف.

الصور والفيديوهات والأخبار ملأت الفيس بوك واليوتيوب وتويتر. فبعض الأهالي وصلوا لمكان الجريمة قبل مجيء الشرطة، والتقط الشباب المهووس بالتصوير عشرات الصور والفيديوهات للقتلى والمكان المخرب. وتم بثها في الحال.

بكى رضوان وهو يرى الصور ومقاطع الفيديو، وامتلأ قلبه حزنا على أصدقائه وعزوته الذين أحبهم وشاركوه الحياة واللقمة والضحكة. وأحس أنه السبب الرئيسي في قتل هؤلاء الأبرياء، وبهتت الحياة بألوانها في عينيه فجأة. وغلبه الغضب العارم، وفكر بجدية في المغامرة والانتقام لأصدقائه المغدورين.

استمر الوباء في حصد المئات من أهالي قرية النخيل، قتل رجالا ونساء طيبين وأشرارا، صغارا وشبابا وعجائز، ورغم الإجراءات الاحترازية المكثفة، وارتداء الكمامات الطبية ورش الكحول الأثيلين للتعقيم والتطهير والحرص والتباعد الاجتماعي وتحول العالم كله لغرفة أون لاين عبر الإنترنت، ظلت الجنائز تتزايد كل يوم، رغم انتشار الأمصال وكثرتها عبر دول العالم، وعودة الحياة لطبيعتها بدرجة مقبولة، وإعادة فتح الكنائس والمساجد، وبدا كورونا ولأول مرة في تاريخ البشر وباء مقيما ، يعيش مع الناس ويحاولون التعايش مع رعبه المزلزل، وأجمع الناس أن الوباء بيده قائمة أسماء لا

تخطـــيء، كثيـــرون أصـــيبوا وتعـــافوا، وكثيـــرون هلكـــوا، رغـــم انتشـــار المعلومـــة الخطيـــرة التـــي ســـاهمت فـــي نجـــاة الملايـــين مـــن المـــوت، فالوبـــاء ينتقـــل عبـــر الأنفـــاس أكثـــر مـــن أي شـــيء آخـــر، والاقتـــراب مـــن شـــخص مصـــاب والتحـــدث إليـــه عـــن قـــرب، يســـمح بانتقـــال مئتـــي وحـــدة فيروســـية خـــلال كـــل دقيقـــة للشـــخص الســـليم، فـــإذا طـــال التقـــارب لخمـــس دقـــائق، يكـــون الإنســـان الســـليم قـــد اســـتلم ألـــف وحـــدة فيروســـية داخـــل أنفـــه وفمـــه وحلقـــه، ثـــم تبـــدأ معركـــة الجهـــاز المنـــاعي مـــع الفيـــروس، قبـــل تســـلله للـــرئتين وإتلافهما تماما كأنه حشرة بق دموية تأكل الحويصلات الهوائية.

فرحـــات أصـــابته كورونـــا ونجـــا مـــن المـــوت، لكـــن لـــم يـــنج ابنـــاه حســـان وعلـــوان، وظـــل يشـــيخ ويكبـــر خـــلال أيـــام قليلـــة، أكثـــر مـــن ســـنوات شـــيخوخته الطويلـــة، دون أن يلـــين قلبـــه الحجـــري أو يرتعـــد مـــن قســـوته ومظالمه لقرب أجله من خط النهاية.

وذات مســـاء كـــان صـــوت ســـعاله يـــدوي فـــي الحقـــول الواســـعة كعـــواء يصـــارع المـــوت القريـــب، يســـعل ويـــدخن الشيشـــة وتطـــول نوبـــة الســـعال، ســـمع صـــوتا غريبـــا علـــى ســـلالم مـــدخل الفـــيلا ، شـــيء مـــا يتـــدحرج، اســـتند علـــى عصـــاه، وســـار فـــي انحنائـــه الـــواهن تجـــاه البـــاب وفتحـــه ونظـــر، الليـــل تـــام بجمالـــه، عتمـــة علـــى الأرض وزرقـــة داكنـــة تتـــألق فيهـــا النجـــوم، وصـــمت طويـــل كعمـــره الســـبعيني، بحـــث بعينيـــه الضـــيقتين مـــن الكبـــر، نظـــرة شـــحيحة لا تكـــاد تميـــز الأشـــياء والألـــوان، تبحـــث عـــن مصـــدر الصـــوت، كـــان إبريقـــا نحاســـيا لمولـــود ذكـــر، انحنـــى بصـــعوبة ليلتقطـــه،

تلقى الطعنة الأولى في جانبه الأيمن من خلفه، صرخته واهنة لن يسمعها أحد، لا أعوان هنا الليلة، ابناه في القبر، زوجته المريضة تشخر في نومها كالرجال، تهاوى على وجهه، برك القاتل فوقه، جذبه من قافية جلبابه ورفع رأسه قليلا أمسكه من محجريه، قال له أربع كلمات: أنا عائد ابن سميرة. ومر السكين من اليسار لليمين.

19

في اليوم الثالث من مقتل الشبان الخمسة جلست خولة تحت قدمي رضوان، وضعت خدها على ركبته، وواسته بلطف ورقة، ذكرته بابنهما الذي تحمله في بطنها، وأن القدر أنقذهما من الموت عدة مرات ليبقيا معا، فنجيا من عمها ساطع، ومن فرحات، ومن مالكي التمثال الفرعوني. وأنهم لن يتوقفوا عن مطاردتهما حتى يحصلا على التمثال والأموال التي سلبها رضوان من السيارة، وفي النهاية سيقومون بقتلهما كما فعلوا بأكرم وسميح والخفراء الثلاثة.

لكـن رضـوان كـان حزينـا جـدا، ومشـتت الفكـر ولا يعـرف مـاذا يجـب عليـه أن يفعـل، ولا كيـف يفعـل، فالمصـيبة أنـه لا يعـرف أسـماء أعدائـه، ولا عنـاوينهم، ولا عـددهم، ولا قـدراتهم. وبمـا أنهـم وصـلوا إلـى الفـيلا وقتلـوا رجالـه، فهـم يعرفونـه جيـدا، ومـن الممكـن تتبـع اسـمه أو اسـم زوجتـه ومعرفـة أيـن همـا الآن، ولـم تعجبـه فكـرة الهـروب والخـوف بعـد هـذه السـنين الطويلـة مـن التعـب والمغـامرة والمواجهـة مـع الحيـاة القاسـية بوحوشها البشرية والحيوانية.

وضـع وجهـه بـين كفيـه، ضـغط علـى ذاكرتـه بقـوة، تـذكر كلمـة رجـل أعمـال فـي البطاقـة الشخصـية، أغمـض عينيـه وعصـرهما بجفنيـه، ركـز تفكيـره وأخـذ يسـترجع، تـذكر الاسـم الأخيـر " رحـوم " كـرر الاسـم مـرة بعـد مـرة، مـرت أمـام عينيـه حـروف الاسـم واضـحة علـى البطاقـة الشخصية كشاشة متحركة.

"منير إلياس رحوم"

وقـف وبحـث عـن قلـم، صـرخ فـي خولـة: قلـم وورقـة بسـرعة، انتفضـت وأحضـرتهما لـه. دون الاسـم، أخـذ نفسـا عميقـا، تهـاوي إلـى الأنتريـه وأحس بفرج قريب.

قال لها : الآن من الممكن أن ندخل حربا صغيرة.

طلب منها سندويتشات وشاي، فتح الكمبيوتر، مرت دقائق، أخذ يأكل بشراهة، جمع كل المعلومات المتاحة على الانترنت عن عائلة "رحوم". وخولة تجلس بجواره صامتة.

قال بصوت مرتفع: أموال بحجم ميزانية دولة.

قالت له ماذا تنوي أن تفعل؟، ووضعت يدها على بطنها.

قال : لا تقلقي يا خولة، اطبخي لنا حماما وبطة.

- ذكرتني بعمي ساطع، يومها أكلنا حمامتين وبطة.

- نعم. نعم. لدينا ساطع جديد.

في تلك اللحظة تذكر رضوان، ماجد المر، وكيل النيابة ابن الطبيبة علياء، تذكر دكتورة إلهام، والضابط الشهم الشريف، ودارت الأفكار في رأسه.

قام بتحميل برنامج الواتس آب للكمبيوتر، ربط بين البرنامج في الهاتف والحاسب، نسخ الأسماء من الشريحة القديمة للهاتف الجديد، أرسل رسالة لحسن الصواف " كيف حالك يا صديقي الحبيب، أنا بخير، أريدك أن تتواصل مع ماجد المر لأجل موضوع مهم، يمكنك الاستعانة بضياء الوكيل وإلهام وخطيبها، الموضوع كبير يا حسن، أريدك أن تفعل ذلك في أسرع وقت"

جاءه الرد " كيف حالك يا رضوان، الحمد لله أنك بخير، أنا في طريقي للمسجد لصلاة الفجر، كم الساعة عندك؟ عند العصر أكون أنجزت هذه المهمة، أرجو أن تمر الأمور على خير"

في الموعد المحدد كان حسن في بيت العمدة بجوار ضياء وماجد المر، وإلهام وخطيبها، كما طلب منه رضوان.

وصلت أول رسالة لرضوان.

ومع الصعوبة والإرهاق اقترحت إلهام الاستفادة من تطبيق زووم، وأخبرت رضوان بتحميله وتركيبه على هاتفه، ثم أعدت غرفة خاصة وأرسلت إليه رابط الدخول وأصبح الجميع يسمعون ويرون بعضهم البعض، كأنهم في غرفة واحدة، وكشف رضوان كل الحقائق، وأخبرهم عن مكان التمثال، وعن أصدقائه المقتولين غدرا، لكن لم يخبرهم أنه تمثال مقلد رغم أنه من الذهب.

بعد انتهاء اللقاء، توجه ضياء وماجد إلى مركز شرطة المدينة، وأخبر صديقه الضابط بكل شيء، وتوجهت قوة شرطية لفيلا رضوان، ومن هناك للجامع، وأخرجوا التمثال من الحفرة أمام دهشة المصلين القلائل المتجهين للمسجد لصلاة المغرب.

ومن أمام الجامع بثت إلهام فيديو مباشرا للحظة استخراج التمثال، ومن هناك انطلقت سيارة الضابط بصحبة وكيل النيابة إلى العاصمة، لتسليم التمثال للنائب العام أو لمسؤول كبير في الوزارة.

وانتشرت الأخبار في أرجاء البلاد، كشف سر مقتل الشبان الخمسة، لكن الوقت قد فات حيث غادر "مراد رحوم " شقيق منير، العاصمة على طائرة خاصة إلى جهة غير معروفة.

صدر قرار اعتقال بحق رجل الأعمال وزوجته، وحرسه الخاص، حيث أثبتت الفيديوهات التي سجلتها كاميرات المراقبة في محطات البنزين والكافي هات على الطريق السريع، أن ثلاثة من رجال الأمن الخاص التابعين لرجل الأعمال، تم رصدهم في نفس الليلة التي وقعت فيها الجريمة، قبل التنفيذ وبعد الانتهاء.

لكن المحامي الشهير كاد يخرجهم من القضية، فظهورهم على الطريق ليس دليلا على تورطهم، وطالب مطابقة البصمات مع موقع الجريمة، بعد تأكد المحامي من القتلة أنهم كانوا يرتدون قفازات جلدية من أجود الأنواع، ولم يتركوا بصمات. لكن حدثت مفاجأة.

صياد السمك العجوز عم معطي، ليلتها كان يتجسس قطعة الشباك الصغيرة التي ينصبها في الترعة، عندما رآهم يقتربون بالسيارات مع إطفاء الأنوار والسير ببطء وحرص ناحية الفيلا، تسلق واحد منهم البوابة وفتحها من الداخل، أغطس معطي نفسه في الماء الا رأسه ، وشاهدهم وهم يتسللون إلى داخل الفيلا، ورغم أن أصوات الصرخات والآلام كانت باهتة، سمعها جيدا، حتى أزيز الرصاص تحت كواتم الصوت سمعها وارتجف قلبه رعبا، وميز ثلاثة منهم بملامحهم

وأجسامهم، بعدما سبح ببطء إلى زاوية رؤية مكنته من مشاهدة القتلة يخرجون من الباب الخلفي للفيلا.

رغم ضعفه وقلة حيلته، وصل للصواف، ومنه للعمدة ثم ماجد المر ثم للضابط، وسافروا به للعاصمة وأدلى بشهادته التي قلبت موازيين القضية.

ولأن حياته أصبحت مهددة، نقله ضياء الوكيل مع أسرته إلى عزبة النخيل، ليعيش تحت حمايته حتى تنتهي القضية.

طار رضوان من الفرح، بعدما علم أن عقوبة الإعدام تنتظر بلا شك رجل الأعمال، لكن فرحته لم تكتمل، لأنه هو الآخر متهم بالسرقة، وإخفاء تمثال أثري بغرض البيع، كما أنه يعتبر سببا في مقتل خمسة شبان أبرياء، لأنه كان يعرف أن حياتهم مهددة بسبب التمثال المسروق، والمصيبة الأكبر معرفة لجنة الخبراء بلا شك، أنه استبدل التمثال، حتى وإن لم يتم الإعلان عن ذلك حتى الآن لأسباب لم يفهمها هو.

واسته خولة قائلة: الحلقة اتسعت قليلا يا رضوان، ستنكشف الغمة لا تقلق.

لكنه كان يشعر بخزي كبير يغشاه، لقد انتبه فجأة أن كل شيء حوله بناه من حرام، أن زوجته من حرام، ابنه الآتي من حرام، اللقمة

وكـوب الشـاي، الفـيلا الجميلـة، الجنـة الهادئـة التـي تحـيط بهمـا، كـل هـذا أتى من حرام. فتمدد على جانبه الأيمن واسترخى ودمعت عيناه.

قالت له :لا تفكر كثيرا يمكننا إصلاح كل شيء.

ضـحك بمـرارة وقـال : كـل شـيء؟ يمكننـا إعـادة المـال لأصـحابه، أو للبلـد إن كـان مسـروقا، يمكننـا أن نصـوم لنكفـر عـن كـل لقمـة أكلناهـا مـن حـرام، مـن الممكـن أن يغفـر الله لنـا الخطيئـة لأننـا تزوجنـا ولـم نسـتمر فيهـا، لكـن كيـف يمكننـا إقامـة سـاطع عمـك مـن المـوت؟ كيـف يمكننـا إعـادة أكرم وسميح والخفراء الثلاثة إلى الحياة؟

- عمـي كـان مجرمـا، كـان سـيقتلك ويغتصـبني وربمـا يقتلنـي بعـدها، وأنا وأنت لم نقتل الرجال الخمسة.

- لقـد قتلتـه وهـو يأكـل تفاحـة يـا خولـة، ولـيس وهـو يهـاجمني بسـكين! ولو لم أسرق المال والتمثال لما مات الشبان الخمسة.

- كانوا سيموتون في الوقت نفسه بأي طريقة.

- القتل يقطع طريق الحياة يا خولة.

- نعم لكنه لا يغير موعد الأجل ولا ينقص العمر.

- لسنا بريئين يا خولة.

- أعـرف لكـن هـذه ليسـت نهايـة العـالم، علينـا أن ننسـى لنسـتطيع أن نعيش الحياة.

- ننسى، يا ليتني أستطيع.

- ستستطيع

- متى؟

- عندما تأخذ العدالة مجراها ويدفع المجرمون الثمن.

- وجريمتنا؟ متى سندفع ثمنها؟

- سندفع في موعد محدد لا تقلق سوف يجيء اليوم مهما تأخر.

- هل من الممكن الهروب من هذا الثمن؟

- هذا أمر يخص مالك الملك وحده.

- أصبحت مؤمنة فجأة!

عندئـذ ضـحكت خولـة وهجمـت علـى رضـوان كذئبـة، فنسـى الميتـين والأحياء.

20

فريد بدأ يظهر على حقيقته، هو الآن يملك صورا حساسة جدا لنيرة المراهقة، ساومها بوقاحة، أخبرها أنه بمفرده في الفيلا، ويجب عليها أن تذهب إليه.

الفتاة أصيبت برعب وهلع، وتحت الضغط والتهديد المستمر من حبيبها الكاذب أخبرت أمها.

إنها المرة الأولى التي تجرب فيها الأم لطم الخدين، وانهالت على الفتاة بالصفعات والعض كفلاحة شرسة نسيت الإتيكيت والرقة، ولم تجرؤ الأم أن تخفي هذا الموضوع الخطير عن العمدة ضياء.

كاد يصاب بجلطة، أصابه شلل في تفكيره كله، غضب العالم كله تجسد في جسمه ويديه، فكر في قتل ابنته التي يحبها، قال لنفسه: مراهقة صغيرة وعالم عشرين عشرين مليء بالإغراءات والوقاحة، حمد الله أن المصيبة لم تتجاوز هذه الصور ، جمع الرجال ووضع خطة جهنمية.

أعطت نيرة موعدا لفريد، وأخبرته أنها ليست مهيأة للذهاب للفيلا بعد، يجب أن نقترب من بعض أكثر، قاد السيارة حيث أرادت الذهاب، أقلقه الطريق الموحش، أرواح هائمة قتيلة هنا تصرخ لكن لم يسمعها، الذئب بداخله كان فرحا لانفراده بالفريسة، دخل الكمين المحكم، جردوه من ملابسه كلها، جلدوه، ألبسوه قميص نوم نسائي،

وسجلوا له عدة فيديوهات والتقطوا صورا، أخذوا هاتفه، وأحرقوه، حذروه أنه إن احتفظ بصور في أي مكان سيذبحونه في المرة القادمة، وتركوه بجوار السيارة وأخذوا نيرة ورجعوا للقرية.

تعلمت الفتاة الدرس، رأت جبروت الرجال والقسوة والشر، رأت أباها بطريقة مختلفة، وأدركت أنه من السهل عليه في لحظة غضب أن يذبحها، ولم ترتكب حماقات أخرى بعدها، رغم أن أمها حرمتها من الهاتف والكمبيوتر شهرا كاملا، وأعادت الوحشية التي رأتها نيرة تحطم كبرياء فريد المدلل، صوابها إلى رأسها، ويوما بعد يوم تلاشى كل ما كان في محرقة النسيان.

كانت كل عائلة لديها مشكلاتها الخاصة، والمشكلة الأكبر التي تحيط بالجميع هي الجائحة القاتلة، وبينما يلهث العالم كله لاكتشاف مصل للوباء، كان العالم العربي نائما ينتظر الفرج من روسيا والصين وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتخرج النكات السوداء، أن العالم المتحضر الذي حارب النقاب أجبره الله على ارتداء نقاب الكمامة رغم أنفه، ولم ينتبه الساخرون أن كورونا يقتل كل الناس من جميع الملل والأديان!

رغم وجود هذه الأفكار البائسة، كانت هناك شابة جميلة تفكر وتبحث وتجرب.

إلهام الطبيبة الشابة، تستغرق في الأبحاث ومتابعة تطور الجائحة عبر العالم، تتأمل الصور الميكروسكوبية، ما أغرب منظره المزعج، يشبه كرة أرضية مغروس في رأسها عشرات الدبابيس.

تستعين في أبحاثها بأفكار وتجارب علمية سابقة أنتجت أمصالا مدهشة لمكافحة أوبئة قاتلة، الكوليرا، السارس، الملاريا، أنفلونزا الخنازير، وظلت تستغرق في معملها حالمة أن تصل للقاح ينقذ العالم.

لكن العالم المتطور لم يكن ينتظر مساهمة إلهام في اكتشاف لقاح، ورغم فرحتها لذيوع خبر اللقاحات الجديدة، شعرت بهزيمة قاسية لأنها لم تستطع إنجاز هذا العمل العظيم، وكانت إلهام تحلم أن تكون هي منقذة العالم، وتصبح نجمة عالمية، وتحصد جائزة نوبل، وتتغير حياتها وتحقق طموحها الكبير.

امتزجت فرحتها بالبكاء والشعور بكونها فتاة عربية تقف خلف العالم بخمسمائة سنة، لكن لم تيأس وشعرت بداخلها أنها ستقدم شيئا عظيما للعالم ذات يوم.

21

هرب مراد رحوم من حبل المشنقة كما هرب رضوان من القتل، لكنه لم يتوقع الأثمان التي سيظل يدفعها لسنوات عديدة قادمة.

ابنته الوحيدة على الأولاد تزوجت فتاة مثلها وهربت لتعيش معها في أمريكا ، فغياب الأب منحها الفرصة الكاملة لتفعل ما تريد، وهناك دخلت في غيبوبة طويلة، بسبب مخدر تجريبي جديد ، شاع أنه يمكن البشر من رؤية الشياطين و الملائكة.!

أما ابنه الأكبر فقد قتل زوجته وطفليه ثم أطلق على نفسه الرصاص، بعدما اكتشف أنها كانت تخونه منذ أول يوم زواج مع أخيه.

رضوان أصبح مسؤولا عن خمس عائلات، يكفلهم عن بعد بوسائل عديدة، وفكر مرات ومرات في أن يتزوج أرملتي صديقيه، سميح وأكرم، تكفيرا عن ذنبه في حقيهما، وفكر في إحضارهما إلى أستراليا، لكن الذئبة كانت تقف له بالمرصاد دائما وتراقبه وتذهب معه إلى كل مكان ولا تغفل عنه أبدا إلا عندما يخرج لصيد السمك أو الغزلان.

رضوان أسمى ابنه على اسم صديقه حسن، واستغرق في العمل في مزرعة الأبقار مع خولة وعماله الجدد، وقبل بلوغ ابنه عامه السابع، أصبح رضوان وخولة يتحدثان الإنجليزية بطلاقة.

وكان الطفل عندما يغضب يقول لأمه : آي ويل كيل يو مامي!

فتضحك خولة وتتذكر خيمة البدو والمشي حافية والتحمم في طست نحاس وعمها ساطع المقتول أمام عينيها.

العمل المثمر أنسى رضوان قرية النخيل والقتلى المغدورين، وظلت مزرعته للأبقار والأغنام تكبر وتكبر، وأصبح يملك مجزرا حديثا، وتتزايد أمواله فوق أموال ودائعه، وأنجبت له خولة فتاتين بعد حسن ، يتحدثون جميعا الإنجليزية أفضل مما يتحدثون العربية، ونشأت علاقات طيبة بين أسرة رضوان وأسر مسلمة كثيرة تعيش من سنين طويلة في أستراليا.

همه الأكبر خطاياه الكبيرة، السرقة والقتل، تمر عليه الأيام دون أن ينسى أبدا أنه يحيا حياة رغدة بناها على جريمة وخطيئة، وكان أعظم ما يتمناه هو الحصول على مغفرة.

كان بحاجة إلى علامة تؤكد له أنه مقبول ، أن الله سيغفر له، ويبدل صحيفته السوداء بأخرى بيضاء، وكان يعرف أن الصدقة بالذات دون العبادات الأخرى لها مكانة عظيمة عند الرب الإله.

ويهيم ويتيه بين صفحات القرآن وصفحات التوراة، يتوقف أمام سفر العدد وينده جدا، خريطة اسرائيل في عشرين عشرين، هي بتفاصيلها وحدودها في سفر العدد، ويعض على يده غيظا، ويفكر كيف يمكنه مساعدة أهل فلسطين المستضعفين، دون أن يتورط في

أمـور يـتم احتسـابها تمـويلا للإرهـاب، ففكـر فـي الأسـر الفقيـرة، وأسـر الشـهداء، ولاجئـي المخيمـات، ووجـد مسـاعدة مـن صـديقه الجديـد عمـر، ومن خلاله استطاع إيصال معونات مالية لأسر فقيرة مرهقة.

رغم كل ما يفعله من خير، لم يشعر بالراحة، لم يحقق سلامه الداخلي بعد، حتى كلمه الذئب.

تلـك الليلـة الخالـدة فـي وجـدان رضـوان، سـمع أصـوات الأغنـام الفزعـة تعلـو وتهـدر فـي ليلـة مظلمـة، اسـتيقظت خولـة وكـان هـو قـد وقـف بطولـه الفارع وينظر من النافذة تجاه المزرعة.

سألته: ماذا هناك؟

- هذا ذئب بلا شك، استطاع الدخول للغنم.

- لا تخرج ربما يكون قطيعا كاملا ، لا تغامر

لكـن رضـوان لا يـدخل الخـوف قلبـه بسـهولة، ارتـدى حزامـا ثلاثيـا، بـه طبنجـة أوتوماتيـك وخنجـران، وأخـذ كشـافا لـه قـدرة إضـاءة تعمـي الأعـين ونزل بسرعة دون تردد.

دار هـو الآخـر كـذئب حـول مبنـى المزرعـة، ليـرى مـن أيـن دخـل الـذئب، وجـد حفـرة أسـفل السـور فـانخفض ونظـر مـن خلالهـا حتـى رأى أنـوار اللمبـات داخـل المزرعـة، فأخـذ يردمهـا بقدميـه حتـى أغلقهـا جيـدا، ثـم استدار ناحية الباب وفتحه برفق ودخل.

قال لنفسه: إذا كان الذئب سيشم رائحتي فالمشي على أطراف أصابعي حماقة كبيرة.

أغلق الباب خلفه وتحرك ببطء وحرص، تحسس إليته اليسرى وتذكر الماضي البعيد، ضحك وقال بصوت مسموع: لا أريد أن أفقد إليتي الثانية هذه الليلة يا ضيفي الكريم.

أحس رضوان أن الأغنام المذعورة شعرت بأمان كبير عندما رأته، وظلت تتحرك تباعا حتى أصبحت وراء ظهره كأنها تحتمي به، عندها وقعت عينا رضوان في عيني الذئب.

كان يقعي فوق غنمة صغيرة ذبيحة الرقبة، ويأكل بتعجل، ينهش ويمزق ويزوم صوته المرعب، كان ذئبا كهلا مثل رضوان تماما، عيناه الذهبيتان متعكرتان بدم أحمر لامع في الجزء السفلي من المقلتين، رفع الذئب رأسه وأظهر أنيابه في انزعاج وغضب وزم حنجرته فدمدم صوته في الأركان.

قال له رضوان : أكمل عشاءك يا صديقي أنا لن أؤذيك.

وتوهم رضوان أن الذئب يرد عليه : ولماذا خرجت من بيتك وجئت إلى هنا الآن؟

- أحببت أن أتعرف عليك ليس أكثر!

- اذهب وتعرف على الله. أنا لن أنفعك كثيرا.

- هذا والله ما أحتاجه يا صديقي.

- وما الذي يمنعك؟

- لا أجد الطريقّ!

- الطريق يبدأ من حلق رأسك.

وحمل الذئب بقايا الغنمة بين أنيابه وتحرك بها ناحية الحفرة فوجدها مسدودة، فالتفت ونظر ناحيته في شبه عتاب.

قال له رضوان :يمكنك الخروج من الباب الآن، لست بحاجة للخروج من حفرة. لكنني لم أفهم ماذا تقصد بحلق رأسي؟

- ستفهم وحدك، فقط دعني أذهب لحال سبيلي.

وأسرع رضوان وفتح الباب ووقف جانبا حتى خرج الذئب واختفى بين الأشجار.

ولما صعد لغرفته وحكى لخولة ما جرى ضحكت وقالت له: لابد أنك تخيلت كل ذلك، نم واسترح يا حبيبي.

فلم يجادلها وسكت وهز رأسه ثم سألها: ماذا تعني لك عبارة تقول : الطريق إلى معرفة الله تبدأ بحلق رأسك؟

فكرت خولة قليلا وقالت : الناس لا يحلقون رؤوسهم إلا عند الذهاب لحج البيت.

عنـدها ألقـى رضـوان بظهـره إلـى السـرير وفـرد سـاقيه وذراعيـه ونظـر للسقف.

سألته من قال لك هذه العبارة؟

- الذئب.

- تصـور يـا رضـوان أننـا طـوال هـذه السـنوات غفلنـا تمامـا عـن هـذا الأمر.

- نعم تم منعنا من التفكير فيه حتى جاء الموعد المعلوم.

- هل سنحج معا هذه السنة؟

- نعم يا خولة.

- وهل سيسمح لنا بالحج؟

- من؟

- الله.

22

بعد اكتمال عشرة أعوام في أستراليا جاء رضوان بمفرده لزيارة قرية النخيل، وكان كلما سأل عن شخص يعرفه، عرف أنه مات، لكن موت كل هؤلاء الناس لم يكن أمرا مأساويا على رضوان، طالما أن صديقه الأقرب بخير وعافية، وخصوصا فرحته بموت فرحات وابنيه، قال لنفسه: لا عيب أبدا أن أشمت في موت من حاول إحراقي، لا أجد في قلبي غفرانا لهم.

الصواف لم يصدق أنه سيلتقي بصديقه مرة أخرى بعد هذه السنوات، وتعجب جدا لوسامة وأناقة ووجاهة رضوان ، حتى ظن أنه أجرى عمليات تجميل، لكن صديقه أكد له أن الطبيعة والبيئة تصبغ كل الكائنات التي تعيش فيها بصبغتها الخاصة.

وسأله حسن هل ستظل في بلاد الغربة إلى آخر العمر؟

فتنهد رضوان تنهيدة تسليم واقتناع وقال:

(مشيناها خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشناها

ومن كانت منيته بأرض

فليس يموت في أرض سواها)

وتناول الصديقان الغداء وجلسا لشرب الشاي ثم ركبا السيارة وطافا في أرجاء القرية، وعندما مرت السيارة بجوار مكان عشة رضوان القديمة دمعت عيناه، وطلب من صديقه التوقف.

ظل رضوان ينظر للترعة وشجر الكافور والجميز، والحقول الواسعة، ترحم على أمه وأخذ قبضة من تراب الأرض حيث كانت عشته هنا ذات يوم، وأخذ كيسا من حسن ووضع التراب فيه.

سأله حسن ماذا ستفعل به؟

- آخذ قبري معي إلي أرض غربتي يا صواف، ثم تعانقا وأوصله حسن إلى المطار، رغم رفضه لذلك.

- هل سنلتقي مرة أخرى يا رضوان؟

- سنلتقي في بيت الله الحرام قريبا يا حسن.

- صرت أخشى عليه من الأوبئة والجراد يا صديقي.

- أنا أخشى أن يسبقني إليه رجل حبشي فيهدمه قبل أن أحقق حلمي المنشود.

- هذا لن يحدث في زماننا الحالي اطمئن.

- لا شيء في هذا العالم يدعو إلى الاطمئنان يا صواف.

- معك حق .خذ هذه علبة كمامات جديدة، وعلبة كحول.

- تسلم لي.. معي ، هنا للأسف يجمع بعض الناس الكمامات من صناديق القمامة ويعاد غسلها وبيعها .

- المواجع هنا لا تنتهي.

- تعال معي يا حسن.

- الأسماك تموت خارج المياه يا رضوان.

- وداخلها أيضا يا حسن.

افترق الصديقان بعد الوداع، وصعد رضوان سلم الطائرة، كان يحمل في يده بوصة بطول ذراع، فيها ستة ثقوب، سألته المضيفة الجميلة وهي ترحب به وتجلسه في مقعده، أنت كنت معنا في الرحلة القادمة من أستراليا منذ أيام، هذا ناي.

- نعم أنا وهذا ناي .. نعم. صنعته بيدي.

- وهل بإمكانك العزف عليه.

- أظن ذلك.

- ستكون رحلتنا جميلة ومشوقة ومليئة بالمفاجآت.

- أنت جميلة جدا، ما اسمك؟

- ميس

وينشر رضوان أصابعه ويحرك أصابعه من فوق لتحت حول أصبع يده اليسرى، مستفهما.

فتقول هامسة: منفصلة.

ربط الركاب أحزمة الأمان، ورائحة الأنفاس خلف الكمامات الطبية لم تكن طيبة أبدا، رغم تحايل الكثيرين بمضغ لبان نعناع وقرفة.

رغم اهتمام المضيفة بكل ركاب الدرجة الأولى على الطائرة، كانت عيناها تقتنصان النظر لعيني رضوان من حين لآخر.

أحس فجأة أنه عاد ثلاثين عاما للوراء، ودب حب الحياة القوي العارم اللامتناهي في قلبه وعروقه وأطرافه، نزع الكمامة، وضع الناي في فمه، وبدأ عزفا ساحرا كما لم يعزف من قبل أبدا، بدأت راكبة جميلة شابة بجواره في عمل بث مباشر بالفيديو، رغم التحذيرات لكل الركاب بإغلاق الهواتف داخل الطائرة. تفاعل كل الركاب مع عزف رضوان وبدأ الهز الجماعي والدندنة، انفجر صوته كشلال من نور يتشقق من بين الغيوم المعتمة.

(اجعلني صادق وأقول الحق لو كان مر

علمني ما اسمعش إلا صوت ضميري الحر)

وتفاعل الركاب الشباب مع غنائه وسألته فتاة شابة، من الذي يغني هذه الأغنية؟

فأخبرها أنها للعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ، لكنه لاحظ أنها لا تعرف العندليب لا الأبيض ولا الأسمر، وشاع جو من الرهبة والحزن داخل الطائرة بعد أغنية حليم، فأمسك رضوان الناي وعزف ثم غنى.

(ديدي. ديدي واه..ديدي ديدي ديدي. واااااه)*

وتحولت الطائرة في طرفة عين إلى كائنات راقصة تتمايل وتهتز، رغم أن الأغنية قديمة.

لكن المضيفة نبهتهم أن يلزموا مقاعدهم، وربط أحزمة الأمان لقرب الوصول إلى مطار أبو ظبي، ثم مرت جوار رضوان ووضعت في يده ورقة صغيرة. وأخذ يقرأ.

"أمامنا ست ساعات استراحة في المطار من الممكن أن نتناول خلالها الآيس كريم"

ولمعت عينا رضوان من شدة الفرح، وسال لعاب الذئب، قفزت خولة فجأة إلى رأسه من احدى لمبات الطائرة، لكنه قال لنفسه: سنطفئ النور.

.....

*أغنية الشاب خالد

23

دخل رضوان جنة ميس، لكنه رفض الخروج منها، وقالت له : يا حبيبي ، عرض عليها الزواج، لكن بعد أن عرفت أنه متزوج ولديه أطفال، عرضت عليه شروطا قاسية، أغلبها مادية بحتة، هي تعيش في الإمارات، وعملها في شركة طيران ناجحة، وتريد زوجها وحبيبها بجوارها، ويؤمن لها مائة حياة قادمة وليس حياة واحدة، وتقول له : كوينزلاند بعيدة جدا، كيف سنعيش كزوجين، كيف سنبقى معا، وزوجتك لن تقبل بوجودي هناك حتى لو قبلت أنا ذلك.

أخبرته أنها لن تكمل الرحلة لأستراليا، ستبقى ليومين إجازة، ترك طائرته تقلع لأستراليا وظل في أبو ظبي عدة أيام، ليبقى قريبا من ميس، ليستطيع أن يلتهم العديد من أقراص العسل.

أخذته ل سهرة في كافيه فخم بأحد الفنادق، تحدث معها عن حياته بالكثير من الأكاذيب، تحدث كمليونير، كرجل ناجح مثقف، أعطاها عنوانه وهاتفه، والواتس آب والفيس بوك، سألته عن عنوانه في مصر، قال لها بعت جميع أملاكي هناك.

بعد منتصف الليل، بعد مرح كثير ورقص ومشروبات روحية، انحنت ميس لتلتقط شوكة طعام سقطت من يدها، لمح رضوان رجلا خلفها بمائدتين يضحك بعظمة.

سأل ميس : من هذا الرجل هناك الذي يدخن السيجار ويرتدي بدلة شفقية؟

تطلعت بعينيها وتأملت الرجل كأنها تراه لأول مرة، ثم أخبرته أنه ملياردير شهير اسمه مراد رحوم. ينتقل بين المدن السياحية عبر العالم ولا يستقر في مكان واحد، وقالت: هناك قضايا جنائية ضده في مصر على ما أعتقد لم يحلها بعد.

عاد رضوان بذاكرته سنوات طويلة للوراء، تذكر الفلاح سعدون وزوجته، وعنقود عنب في يده، ومزاحه مع سميح وأكرم ودخولهم معركة معا عند قبر وحيد، وأغنية شجية تندلع من الناي،

يا إله الكل كن لي.

مد يده في جيب بدلته الداخلي، تحسس الناي، لمعت الفكرة في رأسه، لو كسر قصبة الناي بطريقة معينة سيحوله لخنجر مميت، وظل يرسم الخطة داخل رأسه وميس تلمس يده وتسأله أين ذهب. نهض مراد وأشار براحة يده لامرأة تجلس بجواره، معناها سأعود حالا، وذهب تجاه الحمامات، فكر رضوان في ضيق الوقت، في كاميرات المراقبة، في صرخة القتل. يجب ألا يصدر أي صوت، ألا يراه أحد غير الله، وقف وتحرك وهو يفكر بسرعة، لم يلتفت لكلمات ميس، قال لها : غادري المكان فورا، ولا تتصلي بي حتى أكلمك. وبدت

مستسلمة مقتنعة بتصرفه كأنها خططت معه كل شيء داخل رأسه، ونهض وتتبع الرجل.

رأى ثلاثة ذئاب تحيط به، أحدهم يعضه من الخلف، نهش إليته اليسرى، أخذ قطعة من لحمه، ابتسامة سميح ولمعان الدموع في عيني أكرم، ضغط الناي على ضلوعه فكسره، تجاوز الباب، أغلقه خلفه، وجد المكان عامرا بالرجال والشباب، قال لنفسه : سحقا، مخرجو الأفلام دائما يتركون فرصة للمنتقم بإفراغ دورة المياه إلا من القاتل والمقتول، جاءت حتى رضوان ووقفت! وطالت محاولة مراد لإفراغ مثانته، سبب ما يعطله، انسحب الشباب والرجال بسرعة تباعا، وأصبح القاتل والمقتول وحدهما.

وقف بجوار غريمه يتبول، نظر في وجهه، ابتسم له، أغلق فتحة البنطلون، مر وراءه، في لمح البصر، يده اليسرى كممت الفم، أنا رضوان الذي قتلت أصدقاءه الخمسة، طعنة بعد طعنة بعد طعنة على جانب الرقبة بيده اليمنى، انتهى الأمر. سحبه بسرعة، أدخله مرحاضا ، نزع سترته الشفقية، تتبع الدماء بها، ثم ألقاها على وجه القتيل وغسل الناي القاتل، وأغلق الباب وتوجه مباشرة تجاه المطار.

الطائرة التي ستقلع الآن نحو ماليزيا ليس بها مقاعد شاغرة.

شعر بقلق كبير، أحس أن كل الناس ينظرون نحوه ويهمسون أمسكوا القاتل، رأى شابا متوترا، تفحصه رضوان بعين البصيرة، قال لنفسه :

يبدو فقيرا منكمشا لا يحاول الضحك والاستمتاع بالجمال الذي يحيط به، أنا أعرف هذه الحالة جيدا، إنها لدغة الفقر بنابه السام القاتل، على الفور فتح معه مجالا للكلام، وتعارفا، أخبره بحاجته الماسة لمقعده وتذكرته، أعطاه خمسة أضعاف ثمنها، وطار رضوان إلى ماليزيا، ومن هناك رأسا إلى سيدني، ومن سيدني انطلق إلى كوينز لاند.

أول شيء فعله رضوان صنع نايا جديدا، واشترى مقبرة، أعطى خولة حفنة التراب في الكيس النايلون::عندما أموت انثروا هذا التراب في قبري قبل دفني.

- يطول عمرك يا حبيبي لا تتحدث عن الموت. أرجو أن يكون يومي قبل يومك.

- ضحك ضحكة صفراء، تنهد وقال لها : أعتقد أن أكرم وسميح ورجالي قد أغمضوا أعينهم الآن وناموا.

- ضيقت عينيها وسألته ماذا فعلت؟

- كسرت الناي.

الذئب الكهل كان شديد الشيب، كم يشبه رضوان كثيرا في أرض غربته، يبحث عن طعامه في الغابات والحقول والوديان، وعندما يخيب سعيه يركض تجاه مزرعته ويعوي ثلاث مرات.

يخـرج إليـه فـي يـده سـكين لامـع، يجـذب شـاة نحيلـة أو عرجـاء، يـذبحها ثم يضعها أمام ضيفه.

ينظـر الـذئب بشـغف تجـاه العشـاء الطـازج، ترهبـه لمعـة السـكين وهـي تحـز الرقبـة وتطلـق الـروح الأسـيرة داخـل الجسـد الفـاني، يحـدث نفسـه : مـا أقـوى هـذا الكـائن، مـا أقسـاه، يخيفنـي هـذا المخلـوق السـائر علـى قـدمين، منتصـب القامـة، يـدفع بيديـه الشـر ويبنـي بهمـا ويقتـل بهمـا، جسـده ضـعيف جـدا، يمكننـي تمزيقـه بـين أنيـابي الحـادة، لعـابي وحـده قـادر علـى إنهـاء حياتـه وتسـميمه، كيـف يخيفنـي بضـعفه؟ كيـف لا يمكننـي أن أعـيش حيـث يعـيش، ابـن الإنسـان يجعلنـي غريبـا فـي أرض مولـدي، ويصـبح هـو مالكـا ومسـيطرا بقـوة عقلـه وأفكـاره واختراعاتـه وسـكاكينه وفخاخـه. لمـاذا أعطـاه الله الحـق ليتسـلط علينـا؟ ويشـم رائحـة الـدم، ويعـض الجـوع معدتـه، يقتـرب بحـرص ورهبـة، يلـتهم القلـب والـرئتين والكبـد والطحـال ، يبـدو سـعيدا جـدا، يتبـادل مـع رضـوان النظـرات، فيهـا محبـة، لكنـه يخـاف خيانـة العهـد، يـذكر نفسـه: لـيس علـى الـذئب أن يثـق بـابن الإنسـان، ويلعـق الـدم، وتتحـول عينـاه الـذهبيتان الجميلتـان لهلالـين داميـين، وينهمـك فـي الـنهش والمضـغ، ويخـرج رضـوان النـاي، ويعـزف بأسـى وشـجن، وتنتبـه فـي الظـلام كائنـات جميلـة عديـدة، وعصـافير ملونـة وببغـاوات، وينتهـي الحفـل، ويعـود الـذئب مـن حيـث جـاء، وعنـدما يبتعـد لمسافة نصف كيلو متر، يعوي عواء فرحا، كأنما هو شكر وعرفان.

وينهض عازف الناي ويمضي تجاه البيت ، ويشم من بعيد رائحة صخب خولة المتجدد، فتتمدد أنيابه الصفراء، ويسيل لعابه، وتتحول عيناه العسليتان إلى غيمة من الأرجوان.

24

- ما الذي تغير فيك يا رضوان؟

- لم يتغير شيء يا خولة عما تتحدثين؟

- أشعر أنك شخص آخر غير زوجي، فيك شيء غريب لا أفهمه.

- أبدا أنت تتصورين أمورا لا أساس لها يا حبيبتي. هل جهزت الغداء؟

- تحاول تغيير الموضوع. دقائق فقط وتكون السفرة جاهزة، وسوف نتحدث مرة أخرى، قلبي لا يكذب عليّ أبدا.

يسأل الأولاد أباهم عن مصر، عن أبي الهول، عن الأهرام، عن الجد والجدة، ويحس رضوان بالأسى ويتذكر أمه لكن لا يمكنه تذكر أبيه. سيرته تزعجه، كان يتمنى أن يكون رجلا شريفا بسيطا مثل عم معطي صياد السمك، أو مثل حسن الصواف الإنسان، مثل الملايين من الناس البسطاء الكادحين الشرفاء، ثم ينتبه أنه هو الآخر قاتل ولص، ولديه خطايا لا يعرف كيف يزيحها عن كاهله، وما الوسيلة لذلك، وتلمع كلمة توبة في ذهنه، ويعود من شروده إلى صوت ابنه.

الذي يسأله: متى سنزور مصر يا أبي؟

- قريبا سنذهب في إجازة لرؤيتها يا حسن.

- لماذا ليس لدينا أعمام وأخوال يا أبي؟

- اسأل مامـا، ستخبرك ، يجب أن أسقي الغنم الآن. وينهض رضوان سريعا بعد أن يفقد شهيته للأكل، وتحكي خولة الحكايات والأكاذيب للأطفال الثلاثة.

هناك في مصر عمكم حسن، وعمكم ضياء، أما أخوالكم فقد قتلهم كورونا.

- كلهم يا مامي؟

- نعم يا حبيبتي.

وتشعر الفتاة بانزعاج، وتسكت أصوات المضغ، وتهزم رائحة الكذب رائحة الدجاج.

يمشي رضوان في الحقول والمراعي، يتأمل أغنامه وأبقاره وحياته المستقرة، الطبيعة خلابة هنا والهدوء يطيل العمر، لكنه يعرف في قرارة نفسه أن مصير إنسان قاتل هو القتل في أغلب الأحيان. ويتساءل هل من الممكن أن تحدث معجزة كونية، أن تنير الشمس من موقعها نصف البرتقالة المعتم، أن تتغير سنة من سنن الرب في الأرض وأموت ميتة طبيعية؟ آه يا الله ويتنهد وينشغل بصراع الأبقار على المرعى.

ينزعج لوجود ثور قوي ناطح يضرب الأبقار والأغنام، يشعر في عينيه بغدر دائم، يتعامل معه بحيطة وحذر، ضربة واحدة من هذين القرنين، سيخرجان من بطنه أو من ظهره حسب زاوية الهجوم، لقد رأى هذه اللحظة في إسبانيا في حلبة مصارعة الثيران، يسأل نفسه، لو قتلني هذا الغادر، أكون شهيدا ويسقط ذنبي وتتهاوى خطيئتي، ولا يجد إجابة شافية.

رغم مرور أسبوع من الضجة الإعلامية الكبيرة لمقتل مراد، لم يشغل رضوان رأسه بأفكار مخيفة حول إمكانية توجيه التهمة إليه. ولم تعلن شرطة أبو ظبي أسماء لمشتبه بهم، لم يرد ذكر ميس في أي تحقيق، ويحدث نفسه: أعتقد أنني بعيد عن الاشتباه بي، في هذه الجريمة، أعداء الرجل كثيرون جدا، ثم قفز سؤال إلى رأسه، لا شك أن

بصـــماتي فـــوق الســـترة الشـــفقية ومقـــبض البـــاب. لابـــد أن كـــاميرات المراقبـــة رصـــدتني أثنـــاء دخـــولي خلفـــه للحمـــام وخروجـــي، وتحـــدث مـــع نفسه بصوت مرتفع: لماذا لم يتم الإعلان عن اسمي كمشتبه به؟

كشـوفات الفنـدق تؤكـد وجـودي فـي نفـس الفتـرة مـع تواجـد مـراد، مـيس تعـرف أننـي بـلا شـك متـورط فـي الجريمـة، ربمـا حيـرهم سـفري إلـى ماليزيـا، وتتبعـوا خـط سـيري حتـى سـيدني، وفقـدوا أثـري هنـاك لأننـي جئـت إلـى كوينزلانـد بالسـيارة. ربمـا وربمـا ، تنهـد وضـرب صـدغيه بكفيه وأخرج الناي.

في المساء تلقى رسالة من رقم ميس على واتس آب.

"ما هي أخبارك يا حبيبي، أريد أن أطمئن عليك"

ويكتب لها بلهفة " أهلا ميس قلبي ممتلئ شوقا إليك"

وتـرد " انـا أيضـا اشـتقت إليـك .. عنـدي مفاجـأة لـك، صـديقة عزيـزة لـي تريد التواصل معك"

ويستفسر بدهشة من هي ؟ وترد ستكتب إليك حالاً وتأتي الرسالة.

مسـاء الخيـر يـا دنـج وان، طبعـا أنـت أخـذت حقـك وانتقمـت مـن مـراد لأجـل رجالـك الخمسـة، التمثـال المزيـف الـذي تركتـه يصـل للجهـات المعنيـة ، وصـلنا، فـداؤك ألـف تمثـال مزيـف، تـم إغـلاق قضـية مـراد

وحفظهـا ، ، ضـد مجهـول، بمعرفتنـا، هنـاك أمانـة بحوزتـك أريـدها ونبقى أحبابا.. التمثال الحقيقي"

قـرأ الرسـالة، أحـس برعـب حقيقـي لأول مـرة علـى أبنائـه الثلاثـة، فقـدان حياتـه لا يخيفـه أبـدا، قبـره مبنـي، تـراب وطنـه معـه، فلـيعش مائـة سـنة أو سـتين، الفـارق لـيس كبيـرا، هـو يعـرف أن الحيـاة تقـاس بلحظـات السـعادة والفـرح والانتصـار وتحقيـق الأحـلام، وهـو حقـق كـل أحلامـه، فـاز فـي معاركـه كلهـا، شـبع مـن عسـل الحيـاة وحلاوتهـا، لكنـه خـائف علـى أطفاله، لم يفكر أكثر ، كتب الرد.

"تحت أمرك، طلباتك مجابة بدون شروط يا ست الكل"

وصلته الرسالة الثانية.

"أنـت جميـل فعـلا كمـا حـدثتني مـيس عنـك، إليـك الاتفـاق، التمثـال الأصـلي.. سـأعطيك عشـرة بالمائـة مـن ثمنـه كعربـون محبـة، يمكنـك إضـافة الـرقم للأمـوال التـي أخـذتها يـوم الحـادث، ومـيس أعطيهـا خمسـة في المائة، ما رأيك"

فكـر رضـوان بسـرعة، لـو حـاول المسـاومة أو زرع الشـك فـي نفـس محدثته، ربما تدفع أسرته كلها حياتها ثمنا لذلك. فكر وقرر؟

كتب ردا " موافق يا كبيرة، على البركة"

وصلته رسالة " التمثال في مصر بأمان؟"

كتب ردا "نعم"

-هل أحول لك نصيبك أم تأخذه من ميس؟

- أريد علامة تثبت أنك صاحبة التمثال، ودليلا على حسن النية.

-أرسل رقم حسابك البنكي.

بعد ربع ساعة فقط تأكد رضوان أنه تم تحويل مبلغ ثلاثة ملايين دولار إلى حسابه. فدخل واتس آب وشكر الهانم وميس وكتب لهما الرسالة التالية.

"أمام فتحة مغارة الجبل في أطراف قرية النخيل عند تل العبايدة، الركن الأيمن من مطلعها، أسفل الصخرة العالية التي تشبه رأس ذئب، تحت موقد النار " الكانون " الحفر بعمق مترين"

بعد ساعتين ونصف، وصلته رسالة " شكرا يا حبيبي "

مرت ساعة شرب فيها رضوان ثلاثة فنجانين بن أمام دهشة خولة، فهو لا يشرب سوى فنجان واحد فقط في الصباح وقبيل النوم، وعاد فجأة للتدخين رغم إقلاعه عنه لسنوات. سألته : ما الذي تخفيه عني، وقد دفناه معا؟ صرت تخفي أسرارك وأصبحت لغزا محيرا بعد عودتك من مصر. قالها لها برقة، سأخبرك بكل شيء في وقته يا خولة. أنت حبيبة روحي وضمها وقبل يديها، ثم ترك الهاتف وتنفس بارتياح وجلست خولة بجواره ووضعت رأسه في حجرها، فحكى لها

القصة دون أن يذكر مغامرته مع ميس، أغمض عينيه واسترخى فسمع عواء الذئب، فنهض وهو منهك ونزل لاستضافة صديقه الوحيد في هذا العالم، بعدما ترك الصواف وراءه في مصر إلى موعد لقاء غير معلوم، ويذبح غنمة برحمة وإحسان، وينظر الذئب إليه بامتنان، ويسأله رضوان عن حاله فيقول : أشيخ في وحدتي ببطء كما ترى، لم أعد قادرا على مطاردة الفرائس لمسافات طويلة، صار نفسي قصيرا، الوحدة تهزمني من الداخل، مخالبي تضعف، أنيابي تعتاد أكل العشب والتوت، وأوراق البطيخ و العنب، كنت أصطاد الأسماك أيضا لكنني فقدت المهارة، ضعفت يداي وقدماي.

-لماذا أنت وحيد أليس لديك رفيقة؟

- ماتت منذ زمن بعيد، حاولت أن أحب بعدها لكن سبقني إليها ذئب شاب غزير الفراء. يتنهد رضوان، يتذكر "بدرية" بأسى ويستحضر هناء الجميلة التي سرقتها منه المزامير والأضواء. تتقافز أمام عينيه كلمات سمعها من ديك متكلم في كتاب قديم: أكبر حماقة أن يعيش الرجل لأجل امرأة واحدة، وتمر ميس أمام عينيه كفراشة تتنقل بين الأزهار، يخرج الهاتف ويكتب لها رسالة دون أن يستوعب ما الذي يفعله، أريد أن أراك قريبا جدا في سيدني يا حبيبتي، وترد عليه: سأرسل إليك رقم حسابي البنكي ..... يا حبيبي.